تثوير القرآن

الفصل الأول: عن الثورة بصفة عامة

الفصل الثانى: ثورية القرآن تذهب بوضع الجاهلية وتأتى بوضع الإيمان

الفصل الثالث: من الثورية إلى الحفاظ

- تفريغ التوجيهات القرآنية
- مضمونها الثورى ليمكن معايشة العصر والنظام.
- قوى التحول
- تفسير القرآن
- إيثار المنهج التقليدى على المنهج التحررى القرآنى.
- إقحام مضامين لاهوتية وصوفية

الفصل الثالث: تثوير القرآن

خاتمـــة

الفصل الأول
عن الثورة بصفة عامة

فى كتابى الموءود "ترشيد النهضة[1]" الذى كتبته فى أغسطس سنة 1952 وقدمته بكل الحب و"العشم" لضباط 23 يوليو سنة 52 أوردت تعريفاً سهلاً سائغا، بعيداً عن شنشنة الأكاديميين عن الثورة، **فقلت...**

" الثورة حركة تقوم على نظرية وتستهدف التغيير وتطبقها – أو على الأقل تشترك فى تطبيقها - الجماهير..."

فإذا حدثت حركة دون أن تكون لها نظرية فإنها تكون انقلاباً، وانتفاضة، أو انبعاثه الخ... ويجب أن يلحظ أن هناك فرقاً

---

1 **(1) كَتَبْتُ هذا الكتاب فى خلال الأسابيع الأولى التى تلت انقلاب 23 يوليو وكان إسمه بالكامل "ترشيد النهضة: دراسة للانقلاب العسكرى فى مصر ونظرة عبر المستقبل المصرى" وأردت به تقديم الرأى والنصح وأهديته إلى الأبطال "محمد نجيب وزملائه لكى يظلوا أبطالاً وحتى لا يكون الفجر الكاذب" وكان الفصل الأول فيه تحليل لحركة 23 يوليو وهل هى انقلاب أو ثورة، وانتهيت إلى أنها انقلاب وليست ثورة، وفى الفصل الثانى عالجت فكرة هل يمكن أن يتحول هذا الانقلاب إلى ثورة، وفى الفصل الثالث " البحث عن عقيدة " ثم فى الفصل الرابع "حزب من نوع جديد" وعندما كنت بصدد طبع الفصل الخامس فوجئت بعربة البوليس تهاجم المطبعة وتصادر "الملازم" وتطلب إلى إيقاف الكتابة، وكانت المطبعة ترسل كل ملزمة يتم طبعها إلى السلطات التى عكفت على دراسته. وعندما أتمت قراءة الفصل الأول وأن ما حدث فى 23 يوليو انقلاب وليس ثورة. جَن جنونهم وأصدروا أمراً بالمصادرة ولكنى كنت قد وصلت إلى الملزمة الخامسة. وعقب المصادرة قابلت كبير الرقباء وكان البكباشى أنور السادات فذكر لى أن أربعة من الضباط قرأوا الكتاب كل على حده ورأوا أن الكتاب مما لا يجوز نشره، ولو كان لدى ستة جنيهات قيمة رسوم قضية لرفعتها، ولكن الكتاب كان قد جعلنى مفلساً، وهكذا ُقضى على ترشيد النهضة ووئد وهو فى المهد، ولم يذكر بكلمة فى الصحف العامة حتى أزاحت مجلة القاهرة هذا السر فى العدد 18 الموافق 15/8/2000 م.**

بين نظرية أصيلة ذات فكرة محورية تنطلق منها التفاصيل، وبين نظرية ملفقة تأخذ من هذه النظرية أو تلك.. أو حتى بدون نظرية ولكن لتحقيق مطالب لأن تحقيق هذه المطالب يمكن أن يحقق دون حاجة إلى نظرية، بانقلاب، أو انتفاضة أو ضغط الخ...

والشرط الثانى للثورة أن تستهدف التغيير الكلى أو الجذرى وليس الإصلاح الجزئى، أو المرحلى أو التدريجى لأن هذا كله يمكن الوصول إليه دون حاجة إلى ثورة.

وأخيراً فيجب فى الثورة أن تساهم الجماهير عملياً وفعلياً فى تحقيقها، بحيث لا تأتى من أعلى، من رئاسة أو من ملك أو تكون "خطة" يضعها الوزراء والخبراء فى مكاتبهم ودور بحثهم، ويطالب الموظفون والمسئولون بتطبيقها كل فى حدود اختصاصه. إن هذه الصورة لا يمكن أن تكون ثورة.

وافتراض توفر هذه المقومات الثلاثة للثورة يخرج من إطار الثورة معظم الانتفاضات والهبات التى قامت بها فئات مضطهدة بدءاً من ثورة اسبارتاكوس قبل الميلاد حتى ثورة "اسبارتاكوس" وهو الحزب الذى كونته روزا لوكسمبورج فى ألمانيا سنة 918، وما بين ذلك ثورات الفلاحين فى إنجلترا وألمانيا فى القرن الرابع عشر والسادس عشر، ومثلها ثورة زنج البصرة فى القرن السابع الهجرى..

وكذلك كل الانقلابات العسكرية التى حدثت فى الدول العربية من الثلاثينات حتى الخمسينات، وقام بها ضباط ولم يستطع أصحابها أن يجدوا لها اسما يدل على هويتها فاستعاروا لها أسماء الشهور التى قامت فيها. مثل انقلاب تموز أو فاتح سبتمبر الخ...

فهذه كلها انتفاضات أو قومات أو انقلابات توفر فيها عنصر واحد أو عنصران من مقومات الثورة دون توفير البقية، ومن ثم فلا تعد ثورات، وربما كان الاستثناء البارز منها قومة الشعب المصرى سنة 1919 التى بدأت انتفاضة وانتهت ثورة – وتوضيح هذا يضيق عنه المجال..

وليست الثورة شيئاً سعيداً، محبوباً تتقبله النفوس، وقد لا نحب الثورة، أو لا نريدها، وقد نضمر لها كراهية أو عداوة أو عزوفاً، ولكن هذا لا ينفى أن الثورة تصبح ضرورة عندما تتجمع أسبابها الموضوعية، والثورة موجودة فى الطبيعة فى البراكين والزلازل، وموجودة فى "الأحياء" فى الطفرة.. كما توجد فى التغييرات النوعية للعناصر بتأثير الحرارة أو البرودة الخ...

وبالنسبة للمجتمع فإن الثورة تصبح ضرورية عندما تتراكم الأخطاء تراكما يجعل الإصلاح التدريجى والجزئى مستحيلاً أو حتى لو كان ممكنا فإنه سيهدر وقتاً ثمينا يجعلنا فى موقف التخلف نفسه الذى كنا فيه قبل الإصلاح، وقد يصل التراكم والتعقد درجة يستحيل الحل ويتحتم القطع.

وقد تحدث الثورة نتيجة لهزيمة قاضية، أى تقضى على العهد وتأتى بعهد جديد كما حدث فى روسيا وألمانيا وإيطاليا وتركيا أعقاب هزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى. إذ حدثت فيها – على التعاقب – الثورة الاشتراكية/ البلشفية، وجمهورية فايمار ثم الهتلرية، والفاشية وثورة أتاتورك التى كانت ثورة فى نتائجها وإن كانت عسكرية فى أساليبها.

وقد تحدث الثورة نتيجة للتخبط الذى تصاب به الدولة نتيجة سلسلة من السياسات الفاشلة والمتناقضة بحيث تنبهم أمامها المعالم وتتملكها الحيرة والتردد والفوضى فلا مناص من الثورة.

وليس من الضرورى أن تتراكم الأخطاء وتأخذ شكل التعقد الذى يتطلب القطع، لا الحل. فقد يكفى أن تصاب دولة بدرجة من التأخر والتخلف – لأسباب معينة – وتريد أن تستدرك هذا التخلف، وفى هذه الحالة تصبح الثورة هى الحل الوحيد لأن الإصلاح التدريجى العادى سيتطلب وقتاً يزداد فيه التخلف، ومن شأن المتخلف إذا أراد استدراك تخلفه أن يجرى لا أن يسير، لأن من يريد اللحاق به ليس واقفاً، بل هو يسير أيضاً، وهو عادة يسير بسرعة أكبر مما يستطيع المتخلف أن يسير بها. فى **هذه الحالة فإن الجرى نفسه لا يجدى ويصبح من الضرورى القفز. أى الثورة**

إن الثورة تصبح ضرورية ولازمة لأنها – وحدها – هى التى تحقق:

1. الحسم الذى لابد منه بعد أن وصل التعقد والتفاقم والتشابك نتيجة للتخبطات الماضية إلى درجة لا يرجى معها الحل ولكن البتر.
2. الانطلاق بسرعة وصرامة لا يسمح بها السياق العادى فى حين أن هذه السرعة أصبحت ضرورية بعد التخلف الشنيع وإهدار الوقت الثمين.
3. إذابة الاختلافات.. وصهرها فى بوتقة الثورة.

ولكن لسلامة هذه الثورة لابد من توفر المقومات الثلاثة للثورة التى أشرنا إليها (النظرية – إرادة التغيير – مشاركة

الجماهير) حتى لا تصبح انقلاباً وبدلاً من أن تقضى على المرض، فإنها تفاقم فيه أمراضاً جديدة، كما حدث فى الانقلابات العسكرية فى الدول العربية التى أريد بها الإصلاح فلم تأت إلا بالفساد.

ولا تقتصر ضرورة الثورة على استدراك التخلف. إن مناخ الثورة، وما فيه من حماسة وحرارة. هو وحده الذى يصهر الاختلافات والتناقضات الاجتماعية فى بوتقتها، وما دامت تقوم على نظرية فإن النظرية تجذب هذه التناقضات بقوة وتتولى صهرها وإعادتها سبيكة جديدة تختلف تماماً عن العناصر التى تكونها قبل صهرها لأن النظرية أضافت وأخذت بحيث هيأتها لتكون خلقاً جديداً فضلاً عن أن الإيمان بالنظرية سيكون القوة الدافعة لحركة الثورة من رؤية التنظير إلى واقع التطبيق.

وإذا أردنا أن نطبق المقومات الثلاث التى وضعناها للثورة ألا وهى النظرية – إرادة التغيير، مشاركة الجماهير. فقد لا نجد فى العصور القديمة إلا الأديان.. وقد لا نجد فى العصور الجديدة إلا الثورة الفرنسية والثورة الاشتراكية[1].

ففى الأديان السماوية الثلاثة – على الأقل – نجد النظرية، وقد وصلت أعلى مستوى لها بحيث أصبحت عقيدة، ونجد التغيير الكامل.. ونجد مشاركة الجماهير المستعبدة.. وهذه المقومات واضحة كل الوضوح فى الإسلام، وفى المسيحية، وفى اليهودية بحيث لا نجد أنفسنا فى حاجة للتدليل عليها.

إن عزوف المجتمع الأوربى عن الأديان، وعداوة الاشتراكية (التى احتكرت فى العصر الحديث دعوة الثورة) أدياً لعدم ذكر الأديان كثورات، وهى واقعة لا تسئ للأديان بقدر ما تسئ إلى هذا المجتمع. إن الأديان الثلاثة كانت هى الصورة الوحيدة التى مكنت الجماهير من أن تثور، ومن أن تحقق التغيير، وذلك لأن نظريتها - أو قل عقيدتها - تولد أعظم درجة من الإيمان (وقود الثورة) وتربط هذا الإيمان بالله تعالى رمز القوة المهيمنة

وقد كان مقوم "النظرية" فى الثورة الفرنسية هو أضعف مقوماتها. لأنه كان شعارات المساواة والإخاء والحرية، وهى شعارات فضفاضة ويمكن أن يساء استخدامها فتؤدى عكس المقصود منها بحيث يصدق عليها تماماً كلمة مدام رولان الثورية الفرنسية وهى تساق إلى المقصلة "أيتها الحرية، كم من الجرائم ترتكب باسمك".

---

1 **(1) يمكن أيضاً الإشارة إلى الثورة الإيرانية. فقد توفر لها المقومات الثلاثة للثورة.**

وفى الثورة الاشتراكية نجد نظرية محكمة تقوم على حتمية جدلية مادية، تتقمص قميص العلمية فى مواجهة " طوباوية - أو المثالية" ولكن الذى جذب لها الجماهير كان دعوى العدالة و "الطبقة العاملة" ولكن لما كانت نظريتها لا تخلو من النقص والخطأ وكانت فكرة "الطبقة العاملة" مجرد إدعاء فإن النقص فى النظرية جعلها ترتكب من الجرائم ما جعل جنايتها على البشرية والجماهير أسوأ من إحسانها إليها، وقد كانت الصورة السليمة لها هى "الاشتراكية الديمقراطية" التى اعتبرها لينين كفراً وخيانة وهرطقة وشن عليها حرباً شعواء، ولو قامت بها روزا لوكسمبورج أو كاوتسكى أو بليخانوف، وليس لينين وتروتسكى لكان من المحتمل أن تتجنب الأخطاء الشنيعة التى انزلقت إليها تجربة الاتحاد السوفيتى.

ولم يتنبه الاتحاد السوفيتى إلى هذا الخطأ، أو يتعلم الدرس إلا بعد سبعين عاماً بذلت فيها الجهود، وعلقت عليها الآمال وتحقق بالفعل من الإنجاز، ما لم تقم به أى ثورة أخرى فى العالم، ولكن على غير أساس إنسانى...، وبدون حرية وهما شرطان رئيسيان فى نجاح النظم، ولهذا تهاوى الاتحاد السوفيتى دون الدخول فى معركة، وهو الذى أمل أن سيحفر قبر الرأسمالية..

وفى الإسلام نجد أفضل صورة للثورة، نجد النظرية المثلى، نجد القيادة الحكيمة، نجد المشاركة الجماهيرية، ولهذا اتسمت ثورة الإسلام بما لم تتسم به ثورة أخرى من النجاح أو الإنجاز، ولكن هذه الثورة لم تحتفظ بمستواها إلا لمدة أربعين عاماً، تطرقت إليها بعدها عوامل أخرى افتاتت عليها شيئاً فشيئاً حتى فقدت معظم مضامينها.

وقد يقول البعض ليس لكم إذن أن تعايروا الثورة البلشفية، فقد صمدت سبعين عاماً فى حين أن الثورة الإسلامية لم تصمد سوى أربعين عاماً، ولكن هناك فرق من أربعين سنة من الصفاء والنقاء وسبعين سنة من الأخطاء والجرائم والمنكرات.

ولهذا فإن الأربعين سنة ظلت مصدراً للإلهام وللإشعاع وللإيحاء بمحاولة العودة إليها فى حين أن سبعين عاماً من البلشفية جعلت الأجيال التالية "تتوب" وتتوقف تماماً عن تكرار المحاولة وتدفعها للتبرؤ منها.

* * *

وهذا ما يجعلنا نشير إلى فارق هام ما بين الثورة الإسلامية والثورة كما تفهمها أوربا فى ثورتيها الثورة الفرنسية

والثورة البلشفية. فالثورة الإسلامية استهدفت أولاً وقبل كل شئ إيمان الفرد، والإيمان لا يأتى قسراً وإنما يأتى بالاقتناع والقبول، ولهذا كانت معجزة الإسلام قرآنا يحقق هذا الإيمان، ويحققه بالطريقة الوحيدة أمام أى كتاب أى اقتناع الفرد بما جاء فى القرآن.

وبعد إيمان الأفراد، وتعميق الإيمان فى نفوسهم ينتقل الإسلام إلى القضاء على الأوضاع "الجاهلية" ليغرس أوضاعه الخاصة، ويتم هذا لا بسلطة الدولة بالدرجة الأولى، ولكن نتيجة لإيمان الأفراد، فلو لم يؤمنوا بتحريم الخمر والزنا والربا لعجزت الدولة عن تحقيق ذلك أو لشاب تحقيقها العيوب التى تصاحب كل إجراء يأتى من قبل الدولة.

فثورة الإسلام هى ثورة الكلمة، ثورة الإيمان الذى لا يحتاج إلى سلطة أو سلاح إلا للدفاع، وكحل أخير وهى تحقق تغيير الأوضاع نتيجة إيمان الجماهير وليس سلطة الدولة.

وعلى نقيض ذلك فإن الثورتين الفرنسية والبلشفية استهدفتا من البداية القضاء على الأوضاع، فكان لابد من القضاء على الذين يستفيدون من هذه الأوضاع ويبقون عليها، فكان العنف هو الوسيلة الوحيدة التى لا مناص عنها، وكان لابد لها أن تبرر ذلك فأطلقت عليه "الشرعية الثورية" أى عدم التقيد بالمبادئ التى حمت الأوضاع السابقة.

ولكن التجربة التاريخية تثبت لنا أننا إذا أطلقنا العنف، وتحررنا من الشرعية "الإنسانية" التى تحمى الملكية، والنفس، والعرض بحجة إساءة استخدام بعض الفئات لهذه الحقوق، فإننا سنعجز عن كبح جماحه، وسيؤدى العنف المبرر – إذا جاز – إلى عنف لا يبرر إلا بالعنف نفسه ولا يمكن التمييز بين عدالة عنف ما وعشوائية عنف آخر. إن العنف لأنه ليس له ضوابط – لابد وأن يشمل الجميع – حتى قادة الثورة نفسها فى النهاية.

ولهذا جرت الدماء أنهاراً فى الثورة الفرنسية ولما عجزت البنادق اخترعوا "الجيلوتين" المقصلة ولجأوا إلى الإغراق ! كما قتلت ثورة البلاشفة ملايين الفلاحين عمداً عندما انتزعت منهم أقواتهم وماشيتهم بحجة أنهم "كولاك (أى ملاك)" وتركتهم للصقيع والجوع حتى ماتوا ثم أنداروا على العمال فأعادوا أساليب السخرة القديمة، وحتى فى الحزب فإن محاكم التطهير كانت تبعد سنويا من عضوية الحزب الحاكم مئات الألوف فيفقدون الوظيفة والسكن الخ...

إن الشرعية الثورية هى أسوأ ميراث خلفته الثورتان الفرنسية والبلشفية فى الحضارة الأوربية والفكر السياسى، وقد انتقل منها إلى أقاصى العالم وقامت الدماء أنهاراً فى الصين وكوريا ودول أوربا الشرقية، وكل مكان حكم فيه الشيوعيون، وبعد أن كانت إنقاذاً وتحريراً أصبحت عبودية وتقييدا.

وهذه الوصمة المقيتة "الشرعية الثورية" هى مما برأت منه ثورة الإسلام، لأنها كما قلنا كانت ثورة الكلمة والإيمان – وليس السيف والسلطان – وكان أعظم فتوح الإسلام أول عهده هو فتح المدينة وقد "فتحت المدينة بالقرآن" كما قالت عائشة وحتى فتح مكة الذى أراد المشركون أن يجعلوه معركة دامية فإن حكمة الرسول حالت دون ذلك، وبعد أن قتل عدد يقل عن أصابع اليد أعلن الرسول أن مكة إنما "أحلت ساعة من نهار" بعدها أصبحت محرمة ناسها، وشجرها، وطيرها، وعندما علم الرسول أن خالد الذى أرسله داعياً لا مقاتلاً قتل أثنين أو ثلاثة، أرسل على بن أبى طالب ليصالح أهل المقتولين ويدفع دياتهم، وتعويضاً عن أى شئ خسروه حتى "ميلغة الكلب" أى الإناء الذى يشرب منه الكلب.

وقد عبر الرسول عن إمكانية تحقيق الثورة بطريق سلمى عندما قال "الإسلام يُجُب ما قبله" أى صرف النظر عن الماضى، والتنازل عن أسلوب المحاسبة إذا آمن فرد ما لأن هذا الإيمان فصل ما بين ماضيه، ومستقبله، وعن هذا الطريق كسب الإسلام عدداً من أكبر أعدائه السابقين مثل خالد بن الوليد، وهو صاحب المناورة التى ألحقت بالمسلمين الهزيمة فى أحد. وعمرو بن العاص، وهو سفير قريش إلى النجاشى لاسترجاع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة. وعكرمة بن أبى جهل ابن أكبر عدو للإسلام وأحد القلة التى حاربت المسلمين عند فتح مكة ثم ولى منهزما. لقد تقبل الإسلام هؤلاء الأعداء القدامى فكانوا سيوفاً له بعد أن كانوا سيوفاً عليه، ولم يحاسبهم الإسلام لأن "التوبة" جزء من آليات الإسلام، ولأن الإسلام يجُب ما قبله، وهو تعبير من أقوى التعبيرات الثورية دون دماء ودون حساب.

فإذا قارنا هذه السياسة بسياسة الجاهلية التى كانت لا تدع الثأر أبداً وتدخل فى حروب لمقتل أحد أفرادها أو بسياسة "اغتصاب المغتصبين" التى وضعها لينين "ولا حرية لأعداء الشعب" وغيرها من

سفسطات الشيوعية التى أحلت بها الدماء.
اتضح الفرق الكبير بين ثورية الإسلام وثورية الشيوعية الحديثة..

من هذا العرض يتضح أن الثورة تصبح ضرورة لا مناص عنها عندما نوجد شروطها الموضوعية، وفى هذه الحالة لا يكون التنصل منها محموداً فى شئ، ولكن المهم أن تكون النظرية التى هى ملاك الأمر – سليمة، وقد رأينا أنها فى الثورة الفرنسية كانت فضفاضة وفى الثورة البلشفية كانت خانقة، ولهذا فإن التغيير الذى أحدثناه لم يكن محموداً دائماً، واصطحب بعنف وقضاء على الشرعية، وهى خصائص برئت منها الثورية الإسلامية.

الفصل الثانى
ثورية القرآن
تذهب بوضع الجاهلية وتأتى بوضع الإيمان

يعود الإنتصار الباهر الذى اكتسبه الإسلام أيامه الأولى، والحيوية المتأصلة التى أثبتت وجودها بدرجات متفاوتة حتى فى عهود الانحلال إلى عاملين رئيسين:

الأول: الطبيعة الثورية للقرآن.

الثانى: القيادة الحكيمة للرسول.

وكما سنرى، فإن الطبيعة الثورية للقرآن الكريم هى صاحبة النصيب الأعظم من إنتصار الإسلام.

وتعود هذه الطبيعة إلى الصياغة الإلهية المعجزة التى أثارت درجة عالية من الانبهار والانفعال والإيحاء، كما كشفت عن مفاهيم جديدة وقيما جديدة وعوالم جديدة كانت كلها مجهولة بالمرة لدى العرب.

وكانت الثورية فى القرآن من القوة بحيث لم تستهدف تغييراً أو إصلاحاً فى واقع المجتمع، ولكنها رفضت هذا المجتمع بالمرة، وقد تضمنت ذلك الكلمة الأولى من شعار الإسلام وهى "لا" فى "لا إله إلا الله". إن هذه الكلمة ذات الحرفين كانت حاسمة، قاطعة، باترة كالسيف المرهف ففصلت بين عهدين، واستبعدت الآلهة المتعددة والأوضاع الجاهلية وأقامت الله الواحد الأحد، وما استتبعه من أوضاع إيمانية.

ومن الأيام الأولى لدعوة الإسلام، وقد استبطن الرسول بطريقة ما، هذه الحقيقة، حقيقة أنه رسول ثورة عظمى وتغيير شامل، وهذا الإيمان العميق المتغلغل هو الذى جعله، وليس له حول أو طول أو قوة يستند عليها. يقف كالطود أمام سراة قريش، الذين بدورهم تنسموا المعنى الحقيقى للإسلام، فحاولوا اكتساب الرسول، ولفته عن رسالته وإغرائه بكل المغريات، وسجلت كتب السيرة هذا المشهد التاريخى.

"قال ابن إسحاق. وحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال: حدثت أن عتبة بن ربيعه، وكان سيداً، قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله جالس فى المسجد وحده يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون، فقالوا بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله فقال: يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فأسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله قل يا أبا الوليد أسمع قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال فاسمع منى قال: بسم الله الرحمن الرحيم حم * تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ. ثم مضى رسول الله فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبُة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ثم أنتهى رسول الله إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك"[1].

وفى رواية حتى قوله تعالى فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ فقال عتبه.. حسبك حسبك.

فبأى قوة رفض الرسول السلطة، وهى الهدف الذى يعمل له السياسيون والإغراء الذى يُخدع به الدعاة، وتكررت هذه الواقعة مرة أخرى عندما جاء سراة قريش إلى أبى طالب فقالوا له "يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وأنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا

---

1 **(1) السيرة النبوية لأبن هشام – مطبعة البابى الحلبى – ج1 ص 313.**

أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين أو كما قالوا له. ثم انصرفوا عنه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه.

قال ابن إسحاق: وحدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث. أن قريشاً حين قالوا لأبى طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله فقال له: يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا للذى كانوا قالوا له فأبق علىَّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق قال: فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه. قال فقال رسول الله يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته"[1] وكيف استطاع أن يقف أمام إلحاح عمه الأثير.. وأن يصمد أمام تهديد قريش وأن يقول تلك الجملة التى ما كان شكسبير ليستطيع أن يقولها..؟

لا حل لهذا اللغز، أى صدود الرسول عن الملك والجاه إلا إيمانه العميق برسالته وهو ما يكشف عنه ما حدث عندما طلبه سراة قريش ليكلمهم، وظن الرسول بهم خيراً فلما قالوا له ما قالوه فى المرة السابقة وعرضوا عليه الملك والمال والجاه قال "ما بى ما تقولون. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً. وأنزل علىَّ كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وأن تردوه علىَّ أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بينى وبينكم".

فهنا تتبدى ثورية الإسلام فى هدفها وفى وسائلها. فهى لا تطلب سوى الإيمان بالله – لا الجاه ولا السلطة – وهى لا تعتمد فى هذا إلا على إيمان الناس بها وتجاوبهم معها، وإلا "أصبر لأمر ربى حتى يحكم الله بينى وبينكم".

ورغم هذه المواقف المتميزة من الرسول فى أيام الدعوة الأولى عندما تداعت عليها قوى قريش، وما تتسم به من بعد نظر يعلى الاستراتيجية على التكتيك، والغاية على الوسيلة. **فتظل الأهمية الأولى للقرآن،** ويختلف الإسلام فى هذا عن المذاهب التى يغلب عليها اسم صاحبها، كما هو الحال فى الماركسية واللينينية. **لأن سياسات الرسول الحكيمة إنما كانت تطبيقاً لوحى القرآن.**

---

[1] (2) **المرجع السابق ص 284.**

والمفارقة أن هذه المذاهب تدعى أن البطل ليس هو صاحب الدور الأول فى التاريخ، وأن "العوامل الموضوعية" هى صاحبة الأولوية ومع هذا فإنها تحمل أسماء أصحابها على حين أن الأديان لا تحمل أسم أنبيائها فتقول الموسوية والعيسوية والمحمدية، ولكن اليهودية، والنصرانية والإسلام.

المجتمع الجاهلى الذى
ذهبت به ثورية القرآن

لا يمكن أن نقدر الثورية القرآنية إلا عندما نأخذ صورة عن المجتمع الجاهلى والأصول التى كان يقوم عليها وأودى بها الإسلام.

كانت الجاهلية تقوم على:

أ. ديـــن.

ب. اقتـصاد.

ج. تقاليد وأوضاع فرضها تفاعل الدين بالاقتصاد بعد أن تفاعل هذان مع مناخ الجزيرة وتأثير الصحراء العميق وانفتاحها أو انغلاقها ...

وكانت الوثنية هى الديانة الغالبة، وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة، كان أعظمها هبل (وهو الذى فخر به أبو سفيان يوم أحد) وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى. أدركته قريش وهو كذلك فجعلوا له يداً من ذهب، ومن الكتَّاب من يظن أن هبل تحريف "لأبولو" الإله اليونانى المعروف.

واتخذ أهل كل دار صنما يعبده وإذا أراد السفر تمسح به حتى يكون ذلك آخر ما يفعله قبيل سفره، وإذا قدم تمسح به قبل أن يدخل على أهله.

وفى بعض الحالات كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا وجعل ثلاثة أثافى لقدره وإذا أرتحل تركه فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك !

وإذا لم يجد حجراً جمع حثيه من التراب وحلب عليها شاته ثم طاف بها !

وكان للأصنام الكبرى مثل هبل والعزى كهنة يتحدثون باسمها، كما كانوا يضعون تقاليد تتعلق بنياقهم أشار إليها القرآن ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ

وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1]

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

وكذلك ما ادعوه من بحيرة وسائبة وحام..

وواضح تماماً أن الدين لم يكن من القوى المؤثرة فى حياة المجتمع الجاهلى. فقد كان استكمالاً سقيما وضحلاً لجانب من جوانب المشاعر النفسية يتماثل مع الحالة الفكرية لهؤلاء التجار أو الرعاة أو الذين يعيشون على الغارات، ويأخذ شكل بعض الطقوس، وإذا كان للدين من قوة، فإنها تعود إلى العصبية، وأنه إرث الأباء والأجداد، والتمسك بهؤلاء جزء من "مناخ" المجتمع الجاهلى، وكانت جِدَّه الإسلام من أكبر ما دفع العرب لرفضه لأنه كان يقضى بأن يخالف دين الأباء والأجداد وهو ما جعل رجلاً مثل أبى طالب يقف هذا الموقف.

وكان المجتمع الجاهلى يعتمد فى اقتصاده على الرعى الذى كان يقوم به عادة الأطفال والنساء والعبيد، والتجارة التى كانت صلب عمل قريش وأصل ثروتها بحيث تغلغل الوعى التجارى فى نفسية القرشيين وكان على القرآن، لكى يثير اهتمامهم أن يتحدث عن "تجارة" لا تبور، وتختلف التجارة عن الصناعة التى تقوم على التكييف والإضافة، أو عن الزراعة التى تعتمد على العمل والمتابعة فى أنها لا تتطلب شيئا من هذا، ولا تمثل "قيمة مضافة" وإنما هى عملية نقل المنتجات إلى الأسواق لبيعها هناك. بأثمان تزيد أضعافاً عما دفع فيها..وأهتبالً الفرص، والتحكم فى الأسواق وما إلى هذا كله من دهاء تجارى يستهدف الربح..

وكان المصدر الثالث من مصادر الاقتصاد هو الغارات على الجيران فعندما تشح السماء، فلا يسقط المطر، ولا يكون هناك مجال لرعى. أو عندما تتعسر عليهم سبل التجارة. فليس إلا الغارة على الآخرين والاستحواذ على ثرواتهم قسراً وقد تضطرهم الظروف فلا يدخرون أحداً.

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

باستثناء الرعى الذى كان يتيح لمن يرعى التعامل مع الطبيعة، والسير فى الخلاء، وأن حياة الراعى تقضى ما بين الأرض والسموات فضلا عما تتطلبه حرفته من تعامل مع

---

[1] (1) بمعنى حرام.

الحيوان يقوم على الحرص عليه وتمكينه من غذائه والخروج به فى الصباح والعودة عند المساء. نقول باستثناء الرعى، فإن الغارات كمصدر اقتصادي لا تتضمن إلا قيم السلب والنهب وأما التجارة فإنها تقوم على الذكاء التجارى وتطبيق دستور التجار كافة "أشتر بأرخص الأسعار وبع بأغلاها" ولا جدال فى أنها تتطلب ذكاء ومهارة وخبرة وحسن تقدير ولكنها كلها فى النهاية تصب فى وازع الربح. وتختلف التجارة فى هذا عن الزراعة – أم الحضارة القديمة أو الصناعة أم الحضارة الحديثة فكل واحدة منهما تغرس فى الإنسان مهارات وملكات تمثل إضافة خلاقة وسلوكاً سلبيا فى حالة الزراعة وإيجابيا فى حالة الصناعة.

وهنا يتفق الإقتصاد الجاهلى مع الدين الجاهلى فى أنه لا يقوم على قيم أو أسس أو مبادئ موضوعية.

وكان المجتمع الجاهلى الذى تأثر بالدين من ناحية، وبالاقتصاد من ناحية أخرى يصطنع عادات ويضم علاقات تفى بالاحتياجات التى تتطلبها حياة البداوة.. أبرزها الولع بشرب الخمر والاستمتاع الحسى بالنساء وتسوية العلاقات بالحرب، التى كانت – كما أشرنا – مورداً من موارد الاقتصاد، ووسيلة لحسم المنازعات بين القبائل المختلفة.

وقد استحوذت الخمر على نفس العربى الجاهلى، لأن مجالسها كانت تملأ فراغ يومه، ولأنها كانت تضرم فى نفسه الحمية، والفخر، والشجاعة، ولهذا قال شاعرهم:

ونشربها فتجعلنا ملوكاً وأسـداً ما ينهنهنا اللـقاء

وقالوا فى رثاء ربيعه بن مكدم:

لا تنفرى يا ناق منه فإنه شريب خمر مسعر لحروب

كما كانت تغذى الشهوات الحسية، وهذه كلها ملاك الفضائل لدى العربى الجاهلى، وتشجع على حسم العلاقات ما بين القبائل بعضها ببعض بالعنف والحرب، وما بين الرجل والأنثى بالاستمتاع الحسى..

وتعد قصائد امرئ القيس ومعلقة طرفة بن العبد تمثيلا دقيقاً لما كان يملأ حياة الشاب العربى النابه فى الجاهلية، وهى تضم العناصر الثلاث التى قام عليها المجتمع الجاهلى وأشرنا إليها آنفا وتضمنتها أبيات طرفة المشهورة:

ولولا ثلاث هن من عيشـــة الفتى وجدك، لم أحفـل متى قام عودى

فمنهن سبقى العاذلات بشـــربة كميت متى ما تعل بالماء تزبــد

وكرى إذا نادى المضــاف مجنباً كسيد الغضاء نبهتـه المتورد[1]

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمــد[2]

وبصفة عامة فإن الشعر الجاهلى عن المرأة يعبر عن عاطفة حسية، واستمتاع جنسى باستثناء الحالات القليلة عن الحب العذرى، وهذا هو ما كان يتفق مع المجتمع الجاهلى – مجتمع الحرب أو الشرب مما لم يكن يسمح بمشاركة المرأة، ومن ثم فقد اقتصرت العلاقة ما بين الرجل والمرأة على الصلة الجنسية ولا ينفى هذا أن جانبا من جوانب الحمية، أرتبط بالعرض وأحاط المرأة بصيانة خاصة، ولكن هذا لم ينشأ من سمو المشاعر، ولا من سمو منزلة المرأة، ولكنه كان من مقتضيات الحمية الجاهلية، وقد يدل على هذا أن ثلاثة أنماط من أنماط الزواج الأربعة التى كانت شائعة فى الجاهلية وتحدثت عنها عائشة كانت أقرب إلى الدعارة كزواج الاستبضاع، وهو أن يعتزل الزوج زوجته عند بدء طهرها ويقول لها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها ولا يمسها حتى يتبين حملها "وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابه الولد !!" بالإضافة إلى نمطين آخرين ينشآن عن العلاقة بالعاهرات، مما ينم على أن حاسة الشرف عند الجاهلى لم تكن بالصورة الشائعة عند الناس.

وكان العامل الذى اكسب القبيلة العربية تماسكها فى الجاهلية هو "العصبية" وهى كلمة تغلغلت عميقاً فى جذور المجتمع العربى، وعنى الإسلام أول ما عنى بالقضاء عليها ونجح فى هذا فترة الخلافة الراشدة، ولكنها عادت مع بنى أمية وتمثلت فى موقعة مرج راهط ثم سارت حتى بلغت الأندلس، وكانت سبب تنازع القبائل العدنية واليمنية وأعتبرها ابن خلدون أساس تماسك الملك وكان من العسير اقتلاعها لأن المجتمع الجاهلى بُنِىّ عليها فهى الانتماء وكانوا يقولون إن العرب تنتمى

---

1 **(1) المضاف أى الخائف المذعور – المجنب الفرس الذى فى يده انحناء خفيف والسيد (بكسر السين) الذئب. الغضا الشجر الملتف الكثيف – نبهته أثرته وأخفته المتورد الذى يرد المياه للشرب.**

2 **(1) تقصير يوم الدجن أى أن الاستمتاع بامرأة سمينة ناعمة يجعل يومه الذى جلله الغيم – قصيراً شأن السعادة تحت الخباء المعمد أى المرفوع بالعمد.**

للأباء والأسلاف بينما الأعاجم تنتمى إلى الأماكن والأوطان، وكان عرف القبيلة هو القانون من يحترمه يظفر بحمايتها ومن ينتهكه يحرم من هذه الحماية، ويعد "مهدور الدم" وعرف القبيلة "ذاتى" لا يعرف الموضوعية وشعاره "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" وأن يغضب ألف سيف عندما يغضب شيخ القبيلة "لا يسألون لم غضب" وعن هذه الذاتية المفرطة نشأت عادة الثأر واكتسبت قداستها "وذاتيتها" بمعنى أن ثأر المقتول لا يطلب عند قاتله فحسب، وإنما يطلب عند "قبيلة" قاتله، ولا يقتصر على القاتل، وإنما يشمل أسرة القاتل كلها وقد نشأت أقسى وأطول الحروب نتيجة لثارات كان يمكن أن تسوى لو ضبط الثار ولم يترك ليشمل القبيلة كلها، وما يعنيه هذا من الحرب كحرب البسوس – لأن كليب أصاب بسهمه ناقة البسوس وهى ضيفة جساس – أخى زوجة كليب جليلة – الذى رأى فى ذلك خفراً لذمته ولجواره. فذهب إلى كليب وقتله وهكذا اشتعلت الحرب أربعين عاماً ما بين قبيلة بكر وتغلب وقضت على زهرة فرسان القبيلتين.

كما اشتعلت الحرب بين عبس وذبيان نتيجة سباق بين داحس، وهو حصان قيس بن زهير العبسى، والغبراء وهى فرس حمل بن بدر الذبيانى، وكاد أن يسبق داحس لولاً أن رجالاً كمنوا له وردوه عن سيره فسبقت الغبراء ونشبت الحرب بين عيس وذبيان حتى كادت تفنى القبيلتين..

وكان يمكن لهذه الحرب الضروس أن لا تنشب أصلاً، أو كان يمكن أن تحسم بالصلح، لولا غلبة العصبية والغلو فى الثأر..

وصور جعفر بن أبى طالب مجتمع الجاهلية أمام النجاشى فقال "أيها الملك. كنا قوماً أهل جاهلية. نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف.."

* * *

على أن هذا لا يعنى تجرد عرب الجاهلية من الفضائل فقد كان فى سجيتهم الكرم والشجاعة والأنفة، ولم يخضع العرب لحكم الملوك ولا لطاعة السلاطين ولم تكن لهم حضارة تقضى على الفطرة التى كانت غالبة عليهم، وقد برزوا فى أحد الفنون الرفيعة وهو الشعر فكان محل فخرهم وكانت القصائد الممتازة تعلق على الكعبة، ومن ثم حملت أسم "المعلقات".

كانت الطينة التى جُبل منها العربى الجاهلى طينة فطرية صلبة، ولكن غشيتها غشاوات الجهل والعصبية فحجبت قوتها وانحرفت بها إلى المسارات الضالة، وكان لابد أن يتخلص

المجتمع الجاهلى منها حتى تظهر طبيعتها الحرة.. القوية، وهذا ما قامت به ثورية القرآن.

المجتمع الإيمانى الذى

جاءت به ثورية القرآن:

جاء القرآن فقضى قضاءً مبرما على الأوضاع الجاهلية. لقد عرفهم على "الله" تعالى وكشف لهم عن عوالم قدرته، ورحمته، وخلقه لهذا الكون العجيب من سماوات وأرضين، وتسييرها كلها بنظام دقيق ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. وأنه تعالى هو مصدر القيم العظمى من رحمة وعدل ومساواة وحب التى تضمنتها الأسماء الحسنى، وأكد لهم تأكيد اليقين إن هناك بعثاً بعد الموت ونشراً من القبور وحساباً وثواباً وجنة ونار.. يقوم على العدل بميزان لا يغفل مثقال ذرة...

فأين هذه الصورة الرائعة والآفاق الجديدة اللانهاية زماناً ومكاناً من أوثانهم تلك القبيحة الجامدة؟ لقد كان لابد لهذه الأوثان أن تزول حتى وإن لم يسقطها الرسول واحداً بعد واحد عندما دخل مكة فسقطت الأوثان وأرتفع "لا إله إلا الله"..

أما الغارات التى كانت مصدر رزق عندما يحل القحط فقد قضى عليها الإسلام بما أوجده من نظم للزكاة وللتكامل الاقتصادى.

وكانت قضية العصبية من أصعب القضايا، وقد قضت عليها أخُوَّة الإسلام وإشاعة قيم المساواة الخ.. وندد بها الرسول بصورة تنفر منها النفوس فشبهها بالخرء يدهده الجُعل بأنفه وقال دعوها فإنها مُنتنة.

ولئن كانت عوامل التحول التى سنشير إليها فى الفصل المقبل سمحت بعودتها بدرجات متفاوتة، فما كان فى العهد النبوى والراشدى لأعز عزيز فى العرب أن يقول ما قاله مهلهل "بؤ بشسع نعل كليب[1] " وعندما وطأ رجل من فزاره إزار جبله بن الأبهم ولطمه هذا لطمه أدمت أنفه أراد عمر الاقتصاص منه

---

[1] **(1) عندما احتدمت حرب البسوس رأى الحارث بن عباد سيد بكر أن يطفئها فأرسل أبنه الشاب إلى المهلهل ليقتله فداء لكليب وتنتهى الحرب، وقتله المهلهل قائلا "بؤ بشسع نعل كليب" وهذه الإهانة الفظيعة أن لا يقتل فداء وكفأ لكليب ولكن فداء لشسع نعل جعلت أباه يثور ويقود قومه لكى ينتصر على تغلب انتصارا ساحقاً فى يوم " تحلاق اللمم "..**

وارتاع جبله وقال "أتقصه منى وأنا ملك وهذا سوقه؟" فقال عمر إن الإسلام سوى بينكما..

وفض الإسلام مجالس الخمر التى كانت سلوة الجاهلية وتسليتها وأحل محلها مجالس للذكر والعلم والعمل الصالح..

وعمد القرآن إلى الثأر فألزمه جادة العدالة وأن يكون فى شكل "قصاص" مع ترغيب فى العفو فإن لم يكن ففى الدية.

أما المرأة، وأما الرقيق فقد كانا همان من هموم الإسلام لم يسترح إلا بعد أن حل مشكلتهما، فأوجب العتق بنص القرآن "فإما مناً بعد، وإما فداءً" وحرم الوأد واعترف بشخصية المرأة وحقها فى الإرث الذى حرمته الجاهلية عليها، وحقق المساواة بينهما، وحرم تلك الصور من الزواج القائمة على الدعارة، ووضع نظم الزواج والطلاق بما يحقق فى أرادة القرآن من محبة وسكينة..

وعندما نزل القرآن خشع بلغاء العرب وشعراء القبائل أمامه فتصدر، وتأخر الشعر ووضع القرآن أساساً ليظهر النثر البعيد عن سجع الكهان، ولتتقدم الكتابة وليستلهم العرب من معانى القرآن ما لم يكن يجدوه فى الشعر الجاهلى الذى كانت مادته الفخر والغزل والاستمتاع الحسى والتعصب القبلى.

أسقطت ثورية القرآن الآلهة المعبودة، وإلهة السلطة، وإلهة المال، وإلهة الشهوات التى طالما استبدت بالناس، وأحلت محلها عبادة الله وحده – الرمز والمثل الأعلى، والخالق الحكيم الرحيم العليم الذى يلهم الخير والعدل والحرية ويوجب المساواة والأخوة بين الناس ويضع أصرهم والأغلال التى كانت عليهم وينقذهم من الظلمات إلى النور.

كانت هذه المعانى هى ثورية القرآن، وعندما تغلغلت فى نفوس المؤمنين الأول فإنهم أقاموا عالماً من الحب والأخوة والمساواة والعمل لما يرضى الله.

إن شعب فرنسا عندما تعرف بعد هذا التاريخ بألف عام على شعارات الحرية، والمساواة التى نادى بها عدد من المفكرين ثار وأسقط الملكية ودمر الباستيل وأقام الجمهورية.

فكيف عندما تأتى هذه المعانى فى أقوى صورة، ويصدع بها القرآن ويدعو إليها الرسول الذى جعل القيادة خدمة ورسالة بعد أن كانت تعالياً وسيطرة...

تلك كانت ثورية القرآن...

وعندما حج الرسول حجة الوداع، كان الإسلام قد غرس بذور ثورته وأودى بالأوضاع الجاهلية التى أشرنا إليها.. وأوجد أوضاعاً مختلفة كل الاختلاف تصورها كلماته..

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية). أما بعد أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذا أبدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم أيها الناس: إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله.

أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشكم أحدا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ المسلم، وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت..

كانت خطبة الوداع – من ناحية – وداعاً للجاهلية بخمرها، وآلهتها، وعصبيتها، وحميتها، واستقبالاً للإسلام بعبادة الله والأخذ بمكارم الأخلاق وإشاعة لقيم المساواة، والخير، والعدل التى جاءت بها ثورة القرآن..

الفصل الثالث
من الثورية إلى الحفاظ
تفريغ التوجيهات القرآنية من مضمونها الثورى ليمكن معايشة العصر والنظام

قوى التحول

رأينا أن القرآن الكريم والرسول العظيم قاما فى المدينة بتجربة ثورية لم تشهد لها البشرية مثيلاً لأنها جمعت ما بين الدين والدنيا – القول والعمل، وحققت "اليوتوبيا" المنشودة، وبرئت من لوثات الثورات.

ولكن عوامل عديدة عصفت بهذه التجربة قبل أن تتغلغل جذورها فى أعماق المجتمع العربى، وكان مقتل عثمان واستشهاد على والألوف المؤلفة للقتلى فى الجمل وصفين، بما فيهم زهرة الصحابة، من العنف والقوة بحيث سمحت بوجود "المُلك العضوض" الذى يختلف فى روحه بالدرجة الأولى، وفى مظاهره بالدرجة الثانية عن روح ومظاهر الثورة التى حققها الإسلام فى المدينة...

ولسنا الآن بصدد تحقيق أسباب هـذه النقلة الجسـيمة، ولا الحكمة منها، ولماذا لم يسمح الله تعـالى لهـذه التجربة بالبقـاء، ولو لمدة أطـول مما سـلختها، وما هى الحكمة فى ذلك فهـذا ما تعنى به دراسات موسعة توضع لـذلك أساسـاً. ولا جـدال فى أن هناك حكمة أرادها اللـه... فـإن الله تعـالى لا يصـطنع أقوامـاً إلا على أساس إتـباعهم لما أنزله، ولعله تعــالى أراد أن يعلمنا أن لا نسرف فى الأمل والتفاؤل أو نستكين إلى مثال سابق.

المهم أن المجتمع الذى جاء مع بنى أمية كان مجتمع المُلك العضوض الذى كان كما قلنا – يختلف فى روحه عما أرادته ثورية القرآن حتى وإن احتفظ ببعض الظواهر والشكليات..

ونشأت عن هذا الوضع مفارقة كبيرة، فالناس بين أيديها قرآن تصدع آياته بالثورية، ولكنهم يعيشون فى مجتمع تتعارض، أو حتى تتناقض، أوضاعه مع هذه الآيات..

عوامل عديدة أدت إلى هذه النقلة الجذرية منها:

أولا: أن الانتقال من الخلافة الراشدة إلى المُلك العضوض بدأ بالمحنة التى أدت إلى قتل الخليفة الثالث عثمان ثم مرت بمخاض دموى رهيب ومؤلم نزفت فيه دماء المسلمين وقتل قادة الأمة: على، والزبير، وطلحه، وعمار، والألوف من الصحابة، فكان لابد لهذا المخاض أن ينتهى بمولود يحمل سمات مرحلة القلق والاضطراب.

ثانيا: إزاء المرارة والحسرة والحيرة والهزة النفسية العميقة التى أوجدها المخاض، وأمام التعقيد الذى انطوت عليه التطورات آثر الحسن بن على أن يسلم الأمر إلى معاوية حتى يتفادى المزيد من سفك الدماء ثم لا تكون النتيجة مضمونة. وكان هذا القرار الذى أتسم بالورع والزهد والتنازل فى حقيقة الحال حنكة سياسية، لأن الأحداث دلت على أن البديل الثانى أى مواصلة الحرب بديل فاشل – كما سيتضح من الفقرة الثالثة، ومعاوية رغم أنه هو الذى غرس بذرة هذا التحول المشئوم كان أفضل من غيره، وكانت فيه أثاره وهنانة من عهد الرسول، وحلم وكرم يلطفان السطوة والسيطرة.

ثالثا: أن فئات من المسلمين رفضت الملك العضوض وأرادت العودة إلى عهد الخلافة الراشدة سواء كانوا من الخوارج أو من آل البيت الذى خرجوا مع زيد بن على (زين العابدين) ومع محمد النفس الزكية. أو من أتباع عبد الله بن الزبير أو من القادة الذين ثاروا على الحجاج مثل عبد الرحمن بن الأشعث، وهزم هؤلاء جميعاً فضلاً عن خروج الحسين بن على وكارثة كربلاء التى كادت أن تستأصل أهل البيت

رابعا: لما أصبحت الثورة على القهر مستحيلة لم يعد هناك بد من الاستسلام له، حتى مع عدم "التطبيع" معه، يكشف عن ذلك الصراع بين الأئمة الأربعة، وغيرهم أيضا، وبين سلطة المُلك العضوض ثم أنقرض جيل القتال والرفض، وأنقرض جيل الرفض السلبى وعدم التطبيع وظهر جيل نشأ فى العهد ورضع لبانه، وتأثر به ولم يره شيئاً إداً. فقد حقق القرآن ثورته بالفعل وليس بعد الثورة إلا الحفاظ.. كان المجتمع يريد أن "ينام على الجنب الذى يريحه" كما يقولون، وكانت الأجيال التى نشأت فيه تتفهم هذا وتتقبله، وما كان يمكن أن تتمرد عليه ومن ثم فإنهم رأوا أن دورهم الحقيقى هو الحفاظ وليس الثورة.

خامسا: يجب أن لا ننسى أن هذا الملك العضوض تصدى لرسالة بدت وقتئذ مقدسة، وهى فتح بلاد الفرس والرومان، ومواصلة الخط الذى بدأه عمر بن الخطاب فامتدت الفتوحات الإسلامية من الهند وأفغانستان شرقاً حتى الأندلس غربا، ومن المحتمل أن الأجيال التى عاصرت العهد الأموى، والعباسى رأت

أن ثورة القرآن مستمرة، على أرض جديدة وتحت سماوات جديدة، وأن هذا يُحمد لهذه العهود ويذكر فى حسناتها ويبرر مناصرتها، وقد صلى عدد من الصحابة وراء يزيد بن معاوية عندما كان يقود الجيش الذى حاصر القسطنطينية.

سادساً: كان الإسلام حتى فى عهد الرسول له طابع عالمى، فقد كان حول الرسول سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى وفى بيت الرسول نفسه كانت صفية ذات الأصل اليهودى ومارية القبطية ذات الأصل المصرى، وعندما بدأت الفتوح غطا طرقات المدينة الأسرى وأقبلت الشعوب المفتوحة على الإسلام أفواجاً لما رأت من بساطته وسماحته، ولأنه كان طريق الاندماج فى المجتمع والوصول إلى أعلا مراتبه، وقد استنكر عمر بن الخطاب أن يخلف أحد ولاته مولى له.. فقال الوالى أنه حافظ للقرآن الكريم فتراجع عمر وقبل هذا الوضع لأن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً، ولم يلبث الموالى أن تصدروا كل المعارف الإسلامية: الحديث، والتفسير والفقه. بل حتى اللغة العربية التى كانت بطبيعتها بعيدة عنهم، وأى شئ أكثر دلالة أن يكون إسم إمام العربية "سيبويه".

ولا جدال فى إخلاص الموالى لقضية الفكر الإسلامى وخدمتهم له، ولكن هذا لا يمنع من أنهم حملوا عن آبائهم وأجدادهم تراث حضارات فارسية أو رومية أو هندية غريبة عن الإسلام، وكان هذا التراث يسرى فى الدم لأن الوراثة تنسحب على الحركات والسكنات كما تنسحب على الأجسام والألوان وتؤثر فى طريقة فهم الأشياء وتكييفها، وما كان الموالى يستطيعون – لو أرادوا – التحرر منها خاصة وأن الأجيال الأولى لم تقطع علاقتها بجذورها فاحتفظت بلغاتها الأصلية، ولعلها أورثتها أبناءها، وهؤلاء إلى أبنائهم قبل أن تنقطع العلاقة بينهم وبينها، واللغة قناة تنقل الفكر فى النفس، ولابد أن هذه اللغات نقلت إلى عالم الفكر الإسلامى مضامين عديدة جديدة عليه وبالنسبة للموضوع الذى نحن بصدده فيكاد يكون أثرها الأعظم هو فى صف الحفاظ وليس فى صف "الثورة" فلم يحضروا عهد ثورة الإسلام، أو يشتركوا فيها. وقد جاءوا مع الفتوح، التى بلغت أوجها فى العهد الأموى ثم العباسى، وكانت طريقتهم للظهور فى العهد والنظام القائم الاندماج فيه وليس الثورة عليه..

لهذا كان من الطبيعى أن ُتستبعد المضامين الثورية القرآنية ويحل محلها مضامين من آثار الحضارات السابقة التى تقوم على الحفاظ ومقتضيات الملك، ولم يعدم الذين ذهبوا هذا المذهب آيات من القرآن يمكن أن يحملوها بما ذهبوا إليه.

سابعاً: أن الامتداد السريع للدولة الإسلامية وما حازته من فتوح على الدولة البيزنطية والفارسية، وما استوعبته الدولة العباسية من مؤثرات فارسية وتركية.. وحركة الترجمة التى بلغت أوجها فى عهد المأمون كل هذا أفسح المجال لظهور طرائق فى التفكير لم تكن معهودة لدى العرب.

كما سمحت بظهور حركة " الوضع الوبائى فى الأحاديث " ليس فحسب انسياقا مع الأوضاع أو الضرورات السياسية. بل وكنوع من الدفاع عن الإسلام فى مواجهة المذهبيات كما فعل "الوضاع الصالحون" فى وضع أحاديث عن فضائل السور القرآنية والأدعية وغيرها..

ثامنا: أن عملية وضع الأحاديث ليست إلا جزءً من عملية أكبر وأقدم منها بكثير هى الكيد للإسلام بالدس وإفساد العقيدة بعد أن عجز أعداؤه عن هزيمته، **وقد بدأت هذه العملية بمجرد قيام الإسلام، وفى عهد الرسول، وقام بها فريق من المنافقين ومجموعة من اليهود، وكان من وسائلهم نشر الشائعات، وتوجيه أسئلة معجزة للرسول، والإيمان بالإسلام نهاراً والكفر به ليلاً وأخيراً دس أحاديث وروايات لا أصل لها ونسبتها إلى بعض الصحابة واللغو فى القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ {26 فصلت}.**

وقد يجوز لنا أن نتساءل كم طفل من أطفال بنى قريظة لم يكن قد بلغ الحلم، وعاش بين المسلمين وكم امرأة منهم سبيت ودخلت البيت المسلم، ولعلها قد ولدت وربت وليدها على بغض الإسلام، وليس هذا إلا حالة واحدة من حالات الكيد للإسلام بمجرد ظهوره.

وعندما نعلم أن اليهود، وبالذات يهود بنى قريظة حاولوا التأثير على عمر بن الخطاب فستكون لدينا فكرة عن مدى ما حاولوه. إذ دفع أحدهم إليه بصحيفة من أخبارهم يقرأها، وقبل ذلك عمر بن الخطاب بدافع الفضول والتعرف على فكرهم وعندما ذكر ذلك للرسول غضب غضباً شديداً ونهى عمر عن ذلك.

ولدينا روايتان عن هذه الواقعة تضمنهما مسند الإمام أحمد بن حنبل:

الأولى عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبى فغضب فقال أمتهوكون فيها يا بن الخطاب؟ والذى نفسى

بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى.

والثانية عن عبد الله بن ثابت قال جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى النبى فقال يا رسول الله إنى مررت بأخ لى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال فتغير وجه رسول الله. قال عبد الله فقلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله فقال عمر رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، قال فسُرى عن النبى ثم قال والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين[1].

وفى موقعة اليرموك ضم المحدث الدقيق والذى يعد من أوثق الرواة فى الحديث عبد الله بن عمرو بن العاص حمل زاملتين (ناقتين) من أحاديث أهل الكتاب، ولسنا نعلم على وجه التحقيق هل اختلطت هذه الأحاديث بأحاديث صحيفته القديمة التى كان يسميها الصادقة أم لا.. ولكن السيدة عائشة عندما علمت بذلك تطرق إليها الشك، ولم تعد تأخذ حديثه مأخذ التسليم.

فإذا كان أمثـال عمر بن الخطـاب وعبد الله بن عمـرو بن العــاص وكل واحد منهما إمــام فى بابه كــان هــدفا عمل بعض اليهود للتأثير عليه، فما بالنا بالباقى..

نحن لا يخالجنا شك فى أن كل ما روى من أحاديث عن نسخ، وإضافة، وزيادة، فى القرآن، وسنعرض لأمثلة له فيما يلى، إنما هو جزء مما أشار إليه القرآن الكريم عندما قال .. وَالْغَوْا فِيهِ.. وقد ركبت لها أسانيد ثقات حتى لا يُشك فيها، وجازت الحيلة على المحدثين لأنهم أسرى الإسناد...

* * *

تفاعلت هذه العوامل كلها ما ائتلف منها أو ما اختلف وسارت قدماً خلال قرنين أو ثلاثة وضعت فيها أسس المعارف الإسلامية، وقدمت للدولة الإسلامية المتشحة بعباءة الخلافة، والمجتمع بعلاقاته الاقتصادية والاجتماعية الأطر، والأسس التى تقوم عليها، ويجد فيها سنده التشريعى..

وظهر هـذا كله كتطـور طـبيعى، بل بـدا أمـراً رائعـاً فقد وضـعت قواعد وأسس كل المعــارف الإسـلامية من حــديث، أو تفســير، أو فقــه، أو عقيــدة، ولم يخطر ببــال أحد من الــذين

---

1 **(1) الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام احمد بن حنبل الشيبانى للشيخ البنا ص 175 ج1.**

اشتركوا فى هـذه العملية أنهم ابتعـدوا عن قيم قرآنية وسـوابق نبوية، لأن عملية التحول تأثرت تأثراً تدريجياً، ثابتا بالعوامل التى كـانت تفقد النصـوص القرآنية مضـمونها الثـورى خاصة وأن المعالجة كانت أشـبه بتقطيع أوصـال الإسـلام ومعالجة كل جـزء على حده، وفرض التخصص ضروراته وأولها العناية بـالجزء على حساب الكـل.. ففى علـوم القـرآن كـان هنـاك الـذين يفسـرونه تفسيراً لغوياً، أو مذهبياً، أو بالآثار كما كان هناك مجموعة أخـرى عنيت بقضايا مثل النسخ أو أسباب النزول أو استخلاص الأحكام، وفى الحديث كـان هنـاك علم الرواية وعلم الدرايـة.. وفى الفقه كان الفقه ينعزل شيئاً فشـيئاً عن أصـول الفقـه، ووراء الجميـع، وفى أصل اتجاهاتهم كـانت روح العصر تسـيرهم دون أن يعلمـوا فما كان يمكن لثورية القرآن التى قامت فى المدينة، وعلى يدى الرسول نفسه أن تستمر، لقد قبض الرسـول، وتـوارى الصـحابة واحداً بعد آخر فلم تأت المائة حـتى كـان آخـرهم يلفظ أنفاسـه، واتسـعت الرقعة من "أم القـرى وما حولهـا" إلى إمبراطورية شاسـعة لها مقتضـيات واحتياجـات وتربطها روابط وعلاقـات وتواجه قضـايا ومشـكلات تختلف تمامـاً عما كـان عليه الأمر فى المدينة.

ولو قدر لأحد الصحابة أن يبعث فى عهد المتوكل ببغداد أو الفاطميين فى مصر أو عبد الرحمن الناصر فى الأندلس لصـعق لما يـرى من افـتراق بعيد بين ما كـان يألفه ويفهمه أيـام الرسـول[(1)] وما يلمسه فى هـذه المنـاطق وما يتحـدث به هـؤلاء الأئمة الأعلام.. ولم يستشعر أحد من هؤلاء الأئمة هـذا الافـتراق لأنه حدث تدريجيا وعبر مراحل تسلم كل واحدة إلى الأخرى فلم يلحظ أحـدهم الاختلاف لأنه كـان كمن يشـاهد نفسه فى المـرآة يوما بعد يوم وشهراً بعد شهر فلم تروعه آثار السـن، ولو أنه لم ينظر فى المرآة منذ أن كان فى العشـرين مثلا حـتى أصـبح فى الخمسين لراعه الفرق الكبير..

ونحن بـالطبع أبعد ما نكـون عن أن ننتقد الأئمة الـذين وضـعوا أسس هـذه النقلـة، لأن هـذا كـان أمـراً طبيعيـاً بعد أن صُـفيت الثـورة مع مقـدم الملك العضـوض، ثم ما تلا ذلك خلال قرنـيين حـافلين بالأحـداث والعوامل الـتى كـانت تطـور، وتكيف وتغير النظر فى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وكان بعضها بعيـداً كل البعد عن أصـول الإسـلام، كتلك النقـول المسـهبة عن

---

1 **(1) بل لقد لوحظ التغيير من أيام أنس بن مالك الذى دخل عليه الزهرى فوجده يبكى فقال ما يبكيك قال لا أعرف شيئاً كنت اعهده على عهد رسول الله إلا قولكم لا إله إلا الله فلما قيل له والصلاة أشار إلى أنهم أخروها عن وقتها "أنظر الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ص 199 ج1" وللبخارى رواية مماثلة..**

التــوراة فى كتب التفســير، أو الأحــاديث الموضــوعة أو طريقة معالجة المنطق الأرسطى، ولكنها تـزيت بـزى الإسـلام وأقحمت فيه عن طريق روايــات جــازت عليهم لأنها اســتمدت الشــرط الشـكلى (كالسـند مثلا) ومن المؤكد أنه لم يخطر ببـال أحد من الأئمة الأعلام أن ما يقوم به يفـرغ نصوصـاً قرآنية من مضـمونها الثورى، أو يجافى السـنة الفعلية للرسـول، فلعله لو تنبه لـتردد، ولكن مثل هذا التنبه ما كان يمكن أن يحـدث لأن الغمـار والتيـار والسياق وتدافع الأحداث وتوالى عوامل التحول التى أشرنا إليها كلها حالت دون ذلك، وأنظر مثلاً إلى ثـورة المفسـرين على أبى مسلم الأصـفهانى وهو المفسر الوحيد الـذى أنكر النسخ فقـالوا أنه "جاهل بهـــذه الشـــريعة المحمدية جهلاً فظيعـــاً وأنه "من شياطين المعتزلـة" وأن إنكـاره للنسخ "لا يصح من مسـلم ممن يــدعى إســلامه إلا بتأويــل" وأنظر كــذلك الاســتقبال العــدائى للطــوفى الــذى أعلن فكرته عن أن المصـــلحة هى أول مقاصد الشريعة، وتأمل المعارك التى شـغلت معظم حيـاة ابن تيمية مع فقهـاء المـذاهب، والـتى لم يخلص منها إلا بفضل طلاقة لسـانه وثبات جنانه، ومع هذا سجن مراراً، وقل مثل هذا على ابن حــزم وابن رشد وكانا من خيار الفقهاء..

ما نريد أن ننتهى إليه هو أنه بتأثير قوى عديدة حدثت عملية تحول تدريجية انتهت بنقلة – تكاد تكون نوعية – جردت القرآن الكريم من مضامينه الثورية – ومع أن هذا لم يكن مقصوداً على وجه التعيين – من المفسرين والفقهاء والمحدثين الذين مارسوا هذه العملية وأحلوا محلها مضامين تدعم الحفاظ، لا أنها انتهت إلى هذه النهاية لأنها كانت حكم العصر ومقتضى التطور..

وأخذت هذه العملية التدريجية الطويلة شكل:

1. تفسير القرآن الكريم تفسيراً يجعله كتاب قصص وحكايات، ومعلومات وليس رسالة هداية وثورة.
2. إيثار المنهج التقليدى النقلى على المنهج التحررى القرآنى وتسخير السنة لتبرير ذلك مما شل ملكة التفكير، خاصة بعد إغلاق باب الاجتهاد.
3. إقحام مضامين لاهوتية أفسدت عقيدة الله وشقت وحدة الأمة وأدت – فيما أدت إليه – إلى ظهور التصوف، وغيره من الاتجاهات.

وسنشير إلى كل صورة من هذه الصور فى فصل خاص فيما سيلى..

* * *

-1-
تفسير القرآن

كان الصحابة الذين عاصروا نزول القرآن يجدون فيه رياً لنفوسهم، وشفاءً لصدورهم ونهجاً لما تكون عليه حياتهم وسلوكهم. ولم يطمحوا – باستثناء قلة – أن يحملوا القرآن كله، وكان حسبهم عدد من السور يتدبرها الواحد منهم فتغنيه، لأنها قد تكون ذات معان واضحة فيفهمها، أو تكون ذات إعجاز لغوى فتخشع لها نفسه، ويمكن أن يكون هذا وذاك معا، وفي هذا أو ذاك رضا ومقنع. وكانوا على ما روى إذا تعلموا عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، وقد إستغرق عمر بن الخطاب ثمان سنوات فى حفظ البقرة، ولما أتمها نحر جزورا، ووقف عند كلمة "أبا" فى سورة عبس {الآية 31} ورأى أن جهله بها لا يضيره، بل إن تقصيها هو التكلف بعينه.

ومما يزيد فى دلالة هذا المسلك ومغزاه أن النبى كان بين ظهرانيهم، وكان يمكنهم أن يسألوه، خاصة وقد كان كل ما جاء فى القرآن جديدا عليهم، ولكنهم أثروا أن لا يفعلوا ورأوا فى ذلك نوعا من الفضول يثقل عليهم لارتباط العلم بالعمل عندهم. فالقليل الذى يطيقونه خير من الكثير الذى لا يقومون به أولا يؤدون شكره، ويتنافى مع ما ينبغى للمؤمن من سمت وخلق. ولعلهم تذكروا ضيق النبى بمن يسأل تزيدا وتعنتا أو تفصيلا أو دون حاجة ملحة لذلك، ذرونى ما تركتكم وما جاء فى القرآن من تحريم السؤال عن أشياء إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ.

بل أعجب من ذلك فى الدلالة أن النبى وقد تنزل عليه القرآن لم يخبرهم بتفاصيل عن تفسير أو تأويل ما جاء به، إذ لو فعل ذلك لوصل إلينا قطعا ليس فحسب من باب الرواية كعشرات الألوف من الأحاديث الأخرى ولكن من باب الأحكام لأن ما سيقوله سيعد الحكم الفصل فى الأمر وكل ما وصل إلينا من التفسير المرفوع إلى النبى لا يتعدى ثلاثة عشر صفحة على ما ذكره السيوطى فى كتابه "الإتقان فى علوم القرآن أجمل فيها التفاسير المصرح برفعها "صحيحها وحسنها وضعيفها ومرسلها ومعضلها وإن لم يعول على "الموضوعات والأباطيل" كما استبعد ثلاثة أحاديث طويلة مرفوعة لم يثبت له صحتها أحدها حديث موسى مع الخضر.. والثانى حديث الفتون والثالث حديث الصور "الذى يتناول يوم القيامة" فسكوت النبى عن

تفسير القرآن أو معظمه له دلالته التى لا يمكن إهمالها لما فيها من حكمة..

ولخص أحد الشيوخ المعاصرين الموقف فقال "إن القرآن الكريم لم يحظ بتفسير مروى عن الرسول ولا عن صحابته إلا فى آيات قليلة جداً ومتناثرة فلا يمكن أن تكون تفسيراً كاملاً بالرواية يعتمد عليه"[1].

وعلى كل حال فقد اختلفت الصورة بعد أن قبض النبى وانقضى جيل الصحابة وجاءت الفتوح بالألوف المؤلفة من الذين أسلموا مع انتصار الإسلام من يهود أو نصارى أو صابئة.. وحملوا معهم بقايا معتقداتهم القديمة التى لم يكن من السهل عليهم التخلص منها ولم تسعفهم معرفتهم المحدودة بالعربية فى تفهم القرآن أو إدراك إيجازه ومجازه، استعارته واشارته، ولم يكن فيهم ذلك الحرص على الجمع بين العلم والعمل وإنما كان فى معظمهم فضول للتعرف على ما جاء فى القرآن ومدى اتفاق أو افتراق ذلك عما كانوا يعتقدونه وعزز هذا كله أن توسع المجتمع وتشعبت قضاياه وتعددت مسائله ولم يكن الذين ولوا الأمر بمنزلة النبى المشرع الذى يفصل فى الأمور بما لا يرد فانفتح الباب أمام ما أطلق عليه "علوم القرآن" وعكفت مجموعات من الناس على تأويل وتحليل وتفسير آيات القرآن كل من زاويتها الخاصة مستعينة فى ذلك بما كان فى الكتب القديمة وبوجه خاص التوراة وما كان بين يدى أهل الكتاب من أقاصيص وروايـات طافحة بالتفاصيل ولم يجدوا حرجا من ذلك لما رووه من أحاديث لا تحرم ذلك بل لقد رووا "حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج" فنقلوا عن "علماء اليهود أو من ظنوهم علماء بالتوراة وربما لم يكونوا من العلماء بل من النقلة المحرفين الذين يحرفون ويزيدون أو من عوامهم الذين يسمعون وينقلون ويزيدون، ويستمع منهم المسلمون حتى لتجد كتب التفسير محشوة بتفاصيل لهذه القصص لم يذكرها القرآن ولكنها مأخوذة عن هؤلاء مما اشتهرت تسميته "بالإسرائيليات" وبعض هذه الإسرائيليات تجدها معزوة إلى ابن عباس أو غيره من الصحابة والتابعين مما يوهم روايتها عن الرسول وما هى كذلك وإنما هذا مصدرها الذى أتت منه، اليهود الذين أسلموا ونصبوا من أنفسهم أو نصب منهم المسلمون معلمين مخبرين، مما لم يذكره القرآن من تفاصيل القصص"[2] وامتلأت كتب التفاسير بهذه الأقاصيص وغيرها كأن ذكر ذلك هو القصد وليس تفسير

---

1 **(1) التفسير والمفسرون بقلم الشيخ عبد المنعم النمر - مجلة العربى العدد 125 محرم 1389 – أبريل 1969 ص 25.**

2 **(1) المرجع السابق ص 23**

القرآن بعينه حتى صح على بعضها ما قيل على تفسير الرازى "فيه كل شئ إلا التفسير".

ودخلت ثلاث مجموعات على الأقل مجال التفسير **فاللغويون** أرادوا أن يصلوا إلى أسرار الإعجاز اللغوى فى القرآن، وما جاء به من نظم بديع ونسق فريد، وتطويع فى بنية الكلمات ليحقق وحدة الإيقاع وتنغيم الألفاظ، وليصل بالجملة القرآنية إلى أقصى درجة من إحداث الأثر وأداء المعنى، **والمذهبيون** حاولوا إثبات مذاهبهم فى جوانب من العقيدة بمختلف الآيات مستغلين مرونة التعبيرات وما يمكن أن يحمله تركيب الجملة القرآنية من معانى، وبوجه خاص الآيات المتشابهات، **والإخباريون** تتبعوا الوقائع التى ذكرت فى القرآن من خلق آدم حتى قيام الساعة وما بين ذلك من أحداث، وقصص الأمم التى تحدث عنها القرآن، وفى مقدمتها بنى إسرائيل..

والمأخذ الذى يؤخذ على هؤلاء جميعاً أنهم فى غمرة اهتماماتهم بتخصصاتهم وعملهم لإثبات وجهات نظرهم أهملوا الإشارة إلى روح القرآن نفسه تلك الروح التى تنتظم آياته جميعا ككتاب إحياء ونهضة وهداية يستهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

وكانت النتيجة أن المفسرين – كما لاحظ ذلك أحد أعضاء مجمع البحوث الإسلامية " قد تصوروا مهمتهم على نحو خاص كان له أثر بين فى توجيه التفاسير التى وضعوها فقد واجهوا القرآن فى البداية كنص يراد شرحه وإيضاح معانيه فشرحوا غامضه وحرروا معانيه وأشاروا إلى ما يتضمنه من مبادئ وأصول، ولكن الأمر لم يلبث أن تطور إلى صورة لم تكن تخطر لأحد على بال ولن نستطيع أن ندرك هذا التطور الجديد حق إدراكه إلا إذا تذكرنا أن العلوم العربية كانت فى هذه الحقبة تنمو وتزدهر فى دراستها فأوغل فريق فى دراسة البلاغة وتوسع آخرون فى دراسة النحو والصرف أو اللغة وجمع غيرهم فى دائرة تخصصهم بين كل هذه العلوم أو عدد كبير معها.

والأمر الخطير هنا أن التخصص العميق يصبغ صاحبه بصبغته الخاصة بصورة قوية فعالة لا يستطيع أحيانا أن يتحرر منها حتى إنه لينظر إلى الأشياء من وجهة نظر تخصصه شاء أم أبى. وقد اتجه كثير من هؤلاء اللغويين إلى تفسير القرآن فماذا كانت النتيجة؟ بحسبك أن تنظر فى تفسير الزمخشرى مثلا وأن تتذكر حين النظر فيه أن الرجل من كبار علماء النحو والصرف واللغة والبلاغة فستجد فى تفسيره مصداق ما أشرنا إليه آنفا من تأثر الرجل تأثرا عميقا

بـالعلوم الـتى تخصص فيهـا، فـأول ما يأخـذه نظـره من القـرآن فيحاول بحثه ودرسه هو الاستعارات والمجازات وغـريب القـرآن ثم نحو القرآن وصرفه حتى إذا وصـلت إلى حاشـية الجمل على الجلالين خيل إليك أن الرجل إنما كان يعنيه أن يتخذ من القـــرآن الكريم مجـالاً لتطـبيق علـوم اللغة وبخاصة النحو والصـرف **أما معانى الآيات وموضوع القـرآن فقد أصـبح بمعـزل عن مجال الشرح والعرض وخلاصة الأمر أن القـرآن تنقلت به الحال من كتـاب لتربية المسـلمين وتعليمهم الـدين والشــريعة إلى نص لمجــرد الفهم إلى ميــدان فســيح لتطـــبيق علـــوم اللغة على اختلاف أنواعها وبهـــذا تم عـزل القـرآن كعامل يعمل لتربية المسـلمين وتكـوين عقائدهم وأخلاقهم وشريعتهم وتوجيه سلوكهم"[(1)].**

وعثرة اللغويين من المفسرين نشأت من أنهم ركزوا العناية على الصناعة اللغوية والنحوية بصورة تفرغ الأسلوب من المضمون فقالوا أن فى آية: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ عشرين ضرباً من البديع وأن قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قد جمع الخبر والطلب والإثبات والنفى والتوكيد والحذف والوعد والوعيد.. وفضلوا الآية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ على التعبير العربى القديم " القتل أنفى القتل" وتقصوا ما فى القرآن من تشبيه واستعارة وكناية وتعريض وإيجاز وإطناب وخبر وإنشاء الخ... وألفت كتب كاملة عديدة فى أنواع ذلك.

وأسوأ من عثرة التركيز على الصناعة بصورة تـُنسى المضمون القرآنى أنهم فى بعض الحالات إفتاتوا على أسلوب القرآن وحاولوا أن يخضعوه لقواعدهم. فإذا نزلوا عن ذلك قالوا – كما روى السيوطى – "هذا تفسير معنى وهذا تفسير إعراب.. والفرق بينهما أن تفسير الإعراب لابد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية وتفسير المعنى لا تضره مخالفة ذلك"[(2)]

وأشار كاتب محقق هو الأستاذ: أحمد عبد الستار الجــوارى فى كتابه "نحو القــرآن" إلى المــأزق الــذى وقع فيه النحـــاة واللغويـــون عنـــدما أرادوا الجمع بين

---

1 **(1) الأستاذ إبراهيم اللبان فى بحثه عن "القرآن وتجديد المجتمع" نشر فى "التوجيه الاجتماعى فى الإسلام"من بحوث ومؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية 1391 – 1972 ج 2 ص 161.**

2 **(2) الإتقان للسيوطى ص 182 ج2 الطبعة الثانية مكتبة محمود توفيق بالأزهر.**

مـذاهبهم المقـررة وما تشـمل عليه الصـياغة القرآنية من بلاغة، بدلا من أن يجعلوا أسـاليب القـرآن المثـال الـــذى يقتـــدى به وتقتبس منه قواعد اللغة فقـــال: "ولكن الذى كان ممن وضعوا النحو فى أول الأمر غير ذلك بل عكس ذلك من بعض الوجوه فقد اشـتطت بهم السـبل وعميت عليهم المسـالك فتنكبـوا سـبل القصد واعتمــــــدوا فى وضع قواعد النحو على ما بلغهم من كلام العــرب شــعره ورجــزه ومثلــه. أو آثــروا جـانب المنطق فتصوروا القاعدة قبل استقراء المادة اللغوية وركبـوا مـركب الشـطط فحـاولوا أن يجعلـوا للقواعد المجردة سـلطانا على المـروى المـأثور يحكمونها فيه ويحســــــبون أن ذلك هو الصـــــواب وما هو إلا مجانبة الصواب ولقد بلغ بعضهم فى هذا المجال مبلغ الإيغال والغلو فحكموا على مواضــيع من أى القــرآن بخروجها على نحو العربية.. وركنوا إلى التأويل والتخريج، حـتى تنســـــجم تلك المواضع بأســــاليبها الرائعة وتراكيبها الدقيقة مع ما افترضــوا من قواعد وما رســموا للنحو من حدود.

وأدى تمسكهم بقواعدهم بالزمخشرى لأن ينزلق دون أن يشعر فيقول فى تفسير ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ "والأصل ويبغون لها عوجا فحذف الجار وأوصل الفعل" ولم يستشعر الزمخشرى حساسية أو أنه أساء التعبير عندما قال "والأصل.." الأمر الذى استشعره مؤلف "نحو القرآن" فوضع لفظة (والأصل) بين قوسين واتبعها بعلامة تعجب واستفهام لأن الزمخشرى دخل الحلبة كنحوى ولغوى يرى الأصل فيما يراه النحاة واللغويون.. بينما رأى الأستاذ الجوارى الأصل فيما يضعه القرآن"[(1)].

وعندما لم يـفهموا ضرورة النغم فى التعبير والإيقاع فى السياق وما يؤدى هذه المهمة من حروف أو كلمات، زعموا أن كل شئ يوجد لتحقيق ذلك، ولا يدخل فى استخداماتهم النحوية، يكون – بتعبيرهم "لغوا" ولم يجدوا حرجا من قول ذلك بالنسبة لنصوص قرآنية.. فنقرأ فى استخدامات "ما ".

"والثانى أن يكون لغوا وذلك نحو قوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ أى فبرحمة.. ومثل ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أى بنقضهم.

---

1 (1) **" نحو القرآن " للأستاذ عبد الستار الجوارى ص 53.**

وأما قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً﴾ ففيه قولان: أحدهما أن ما لغو، والتقدير أن الله لا يستحى أن يضرب مثلا بعوضة والثانى أن ما نكرة وبعوضة بدلا منها يسد مسد الوصف ويجوز الدفع فى بعوضه من وجهين أحدهما أن تكون خبر مبتدأ محذوف على طريق الجواب كأن قائلا قال ما هذا المثل فقيل بعوضة، أى هى بعوضة.

والثـانى أن تكـون ما بمعـنى الـذى وبعوضة خـبر مبتـدأ محـذوف والجملة من صـلة ما والتقـدير أن الله لا يسـتحى أن يضرب مثلا الذى هو بعوضة[1].

فأنظر إلى هذه الإفتياتات والتعسفات والتعبـيرات الركيكة والتفسـيرات السـقيمة على حين يمر التعبـير القـرآنى بـالنفس مرور النسيم العليل ويدخل الآذان دخول النغم الجميل.

وقد يتلطفون فلا يقولون "لغوا" ولكن زائدة كما قالوا فى "من" فى قوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ "كأنه قيل ما لكم إله غيره" فى حين أن تركيز الجملة القرآنية يكاد يتأتى من حرف "من" الذى اعتبروه زائداً.

وقد لفت إطلاق تعبير "زائدة" على حروف أو كلمات أوردها القرآن، ومدى لياقة ذلك الإمام السيوطى. فأورد فيما يجب على المفسر.. ".. أن يجتنب إطلاق لفظ الزائدة فى كتاب الله، فإن الزائدة قد يفهم منه أنه لا معنى له، وكتاب الله منزه عن ذلك "..

وأعياهم جميعاً أن يفهموا حكمة كلمة "ليلاً" فى الآية الأولى لسورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.. إلخ.. لأن السرى لا يكون إلا ليلاً، ومن ثم فإن تكرارها من الناحية اللغوية فحسب يكون لا معنى له، والحق أن القرآن أثبت ليلاً لأن لها ضرورة فى نغم الآية لا يتأتى إلا بها، والقرآن إيقاع وموسيقى كما هو نحو ولغة، ومقتضيات الإيقاع والموسيقى أكثر ضرورة من مقتضيات اللغة، لأنها هى التى توجد التأثير الذى يريده القرآن.

على أن مواقفهم تلك تهون أمام موقفهم تجاه "لحن القرآن" كما زعموا أى التعبيرات من نوع ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ فهنا حطم القرآن أقدس المقدسات النحوية من رفع أو نصب

---

[1] **(2) معانى الحروف تأليف أبى الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى – تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى – دار نهضة مصر ص 90.**

وكان أهون عليهم أن يمسوا قداسة القرآن من أن يمسوا أوثانهم التي ظلوا لها عابدين فأوردوا أحاديث مؤتفكات فرووا عن عروة أنه سأل عائشة عن ذلك فقالت: "يا إبن أختى هذا عمل الكُتَّاب أخطئوا فى الكتاب" ورووا عن عكرمة قال "لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفا من اللحن فقال لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف والمملى من هذيل لم توجد هذه الحروف" كما رووا عن أبان بن عثمان يرويه الزبير يقول قلت لأبان بن عثمان كيف صارت ﴿لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ما بين يديها وما خلفها رفع وهى نصب؟ قال من قبل الكُتَّاب كتب ما قبلها ثم قال ما أكتب؟ قال أكتب "المقيمين الصلاة" فكتب ما قيل له ونسبوا إلى سعيد بن جبير أنه قال في القرآن أربعة أحرف لحن "والصابئون" "والمقيمين" ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾..

ومن هذا ما أخرجه بن جرير وسعيد بن منصور فى سننه عن طريق سعيد بن جبير عن إبن عباس فى قوله ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ قال إنما هى خطأ من الكاتب حتى تستأذنوا وتسلموا أخرجه ابن أبى حاتم بلفظه هو فيما أحسبه مما أخطأت به الكتاب وما أخرجه ابن الأنبارى عن طريق عكرمة عن ابن عباس أنه قرأ ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ فقيل له أنها فى المصحف أفلم ييئس فقال أظن الكاتب كتبها وهو ناعس! وما أخرجه سعيد بن منصور عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يقول "وقضى ربك" إنما هى ووصى ربك التزقت الواو بالصاد وأخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ ووصى ربك ويقول أمر ربك أنهما واوان التصقت أحدهما بالصاد[1] وأخرجه عن طريق أخرى عن الضحاك قال كيف تقرأ هذا الحرف وقضى ربك فقال ليس كذلك نقرؤها نحن ولا ابن عباس إنما هى ووصى ربك وكذلك كانت تقرأ وتكتب فاستمد كاتبكم فاحتمل القلم مدادا كثيراً فالتزقت الواو بالصاد"[2]. فهذه كلها إما أن تكون روايات متهافتة وإما أن تكون من باب "وكم من عائب

---

1 **(1) ليس أدل على فساد هذه الأقاويل من أن الله تعالى ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بالتوحيد مباشرة ومعطوفا عليه، وتوحيد الله وما يعطف عليه لا يكون توصية، ولكن وجوباً وقضاءً كما أن تناسق الإيقاع يرفض ووصى ويوجب "وقضى".**

2 **(2) الإتقان للسيوطى ج1 ص 185.**

قولا صحيحا. وآفته من الفهم السقيم" وهذا واضح عند مقارنة دعاوى القوم بنص التنزيل العظيم تعالى عما يزعمون ولا يخالجنا شك فى أن هذا الكلام بأسره موضوع أو موهوم حتى عندما يحكم المحدثون بأن فيه ما هو صحيح على شرط الشيخين فلا عائشة ولا عثمان ومن باب أولى عروة وعكرمة وغيرهما يمكن يقولوا ذلك أو أن يحملوننا على قبوله ولأسهل علينا أن نقول إن القرآن أراد أن يحطم وثنية هؤلاء النحاة الذين يعبدون القواعد دون المعانى كما أراد أن يحطم وثنية الذين يعبدون الملوك والآباء والشموس والأقمار دون خالقها جميعاً.

وقد كانت هـذه الأقـوال المنحولة والادعـاءات الموضـوعة وأمثالها هى عـدة المستشـرقين وأعـداء الإسـلام فى الكيد لـه، وبناء الأحكام عليها..

وقد تقصى كاتب مجتهد بعض مواقف اللغويين المجافية للنصوص القرآنية، مما أدى به إلى المطالبة بتعديل أربعين قاعدة من القواعد النحوية[1] أدرجها فى كتابه "نظرية النحو القرآنى" ونحن نعرض هنا باختصار إفتياتات بعض اللغويين على القرآن الكريم تمسكا منهم بنظرياتهم ووصفهم بعض القراءات الثابتة بالرداءة والقبح، وما إلى ذلك من الصفات التى لا تناسب القرآن الكريم.

من ذلك أنهم أرادوا قراءة الآية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ بجر الأرحام عطفاً على الضمير المخفوض بدون إعادة الخافض، وهى قراءة متواترة عن النبى قرأ بها سلف الأمة واتصلت بأكابر قراء الصحابة.. لأنها تخالف قاعدة "لا يجوز عطف الاسم الظاهر على الضمير المخفوض إلا بعد إعادة الخافض" وردوها، وخطئوها وحرموا القراءة بها تحريما قاطعاً قال المبرد "لو أنى صليت خلف إمام يقرؤها لقطعت صلاتى وحملت نعلى ومضيت"..

وقال النحويون "لا يجوز وقوع الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب" مع أن فى القرآن الكريم ثمانى عشرة آية وقع فيها الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب مثل ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ و﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ و ﴿لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾

ومن قواعدهم يجب فتح ياء المتكلم ولا يجوز كسرها فى نحو مصرخى {سورة إبراهيم آيه 22} وتبعا لهذا أنكروها

---

1 **(3) هو الدكتور أحمد مكى الأنصارى وهو أستاذ جامعى متمكن وكتابه هو "نظرية النحو القرآنى" 1984 – أنظر الصفحات ص 38، 52، 53، 75، 110، 112**

ورموها بالقبح واللحن والرداءة والغلط والوهم والشذوذ وقالوا " إنها رديئة مرذولة "..

وقال النحاة "يمتنع وقوع "كل" المضافة للنكرة مفعولاً به، مع أن هذا أمر جاء فى القرآن الكريم 37 مرة.. وجاءت خمس مرات فى سورة الأنعام.. وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا {25} وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً {80} وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً {111} وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ {101} وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ {146}.

وضرب المؤلف مثلاً لمعارضة النحـاة "ما جـاء فى تحقيق الهمـــزتين فى مثل أئمة فى قـــراءة ســـبعية متـــواترة.. بل فى قراءات متعددة متواترة..، ومع ذلك وصفوها باللحن بحجة أنها لا تتفق مع القياس.. ونسوا أن السماع الصـحيح الكثـير المتـواتر.. فوق كل قياس، لأن اللغة تثبت بالسماع الصـحيح الكثـير قبل أن تثبت بالقيـاس.. وما أجمل المبـدأ القائـل: **"مقياس الـترجيح هو السماع الصحيح"..**

ذلك موقفهم من تحقيق الهمزتين... فلما جاء الإبـدال (أى إبدال الهمزة الثانية يـاء فى كلمة أئمـة) وصـفوه بـاللحن أيضـا.. إســتمع إلى الزمخشــرى يقــول: "فأما التصــريح باليــاء فليس بقــراءة، ولا يجــوز أن تكــون قــراءة، ومن صّــرح بها فهو لاحن محرف"..

وقريب من هذا أو اشدّ منه.. موقفهم من قراءتين جاءتا فى قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾.. حيث قرأت كلمة "هذان" بالألف مع تشديد النون من "إن" فى قراءة سبعية متواترة.. بل فى قراءات متعددة.. فعارضها بعض النحاة معارضة صريحة.. بل أنكروها إنكارا تاما وقالوا إنها ليست من القرآن لأنها غلط من الكاتب.

فلما جاءتهم قراءة سبعية أخرى بالياء "هذين" عارضوها أيضا معارضة صريحة.. وقالوا: إنها "غلط من الكاتب" أيضا.

وأنظر إلى ركاكة ما يحملهم عليه تمسكهم بقواعدهم فقد قال الله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ والإعراب الفطرى الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو أن تعرب كلمة "السماء" مبتدأ. وخبره ما بعده "جملة انشقت"، وكذلك الحال فى الآية الأخرى، فالأرض مبتدأ، ما بعده خبر له "جملة مدت"، وبه قال بعض العلماء الأجلاء غير أن جمهور النحويين رفضوا هذا الإعراب الفطرى السليم، وتأولوا الآيات تأويلا يخرجها عن سلاستها المألوفة فى القرآن الكريم فقالوا: التقدير إذا انشقت السماء انشقت، وإذا مدت الأرض

مدت، فالسماء فاعل لفعل محذوف تقديره (انشَقَّتْ)، والأرض نائب فاعل لفعل محذوف تقديره (مدت) تكلفوا كل ذلك ليخضعوا الآيات الكريمة للقاعدة النحوية التى صنعوها بأيديهم.. تلك التى تقول بوجوب إضافة إذا الشرطية إلى جملة فعلية، وفى هذا يقول ابن مالك.

وألزموا إذا إضــافة إلى جمل الأفعال كَهُنْ إذا اعتلى

* * *

ودخل الاخبــاريون الحلبــة، ولعل أســبقهم وأبــرزهم ابن عباس الذى أفردوا كتاباً كبـيراً لتفسـيره ومع هـذا فقد قـال عنه السيد رشيد رضا..

".. وأما ما روى عن ابن عباس فى تفسيره فأكثره موضوع لا يصح لأنه مروى من طريق الكذابين الوضاعين كالكلبى والسدى ومقاتل بن سليمان. وذكر ذلك الحافظ السيوطى وسبقه إليه شيخ الإسلام بن تيمية بل إن رواية هؤلاء وإضرابهم التفسير عنه وعن غيره هى المقصودة من قول الإمام أحمد رحمه الله تعالى "ثلاثة كتب لا أصل لها المغازى والملاحم والتفسير" قالوا إنه أراد كتبا مخصوصة فى هذه المعانى الثلاثة غير معتمد عليها لعدم عدالة ناقليها ولزيادة القصاص فيها وذكروا منها تفسير هؤلاء بل نقلوا عن الإمام أنه قال فى تفسير الكلبى "من أوله إلى آخره كذب لا يحل النظر فيه" وقالوا إن كل من ينقل فى تفسيره من الأحاديث الموضوعة لا يوثق بتفسيره بالمأثور ومن هؤلاء الثعلبى والواحدى والزمخشرى والبيضاوى"[1].

وأهم من هذا وأصرح ما ذكره ابن تيمية فى تفسيره سورة النور "وهذه الكتب التى يسميها كثير من الناس كتب تفسير فيها كثير من التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم وقول على الله ورسوله بالرأى بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية ".

"وأما كونه ثابتا عن ابن عباس أو غيره فهذا مما لم يثبت ومعلوم أن فى كتب التفسير من النقل عن ابن عباس من

---

1 **(1) السيد محمد رشيد رضا رحمه الله فى "الوحدة الإسلامية" والاخوة الدينية (نشرت فى المجلد الثالث والرابع والسادس من المنار) ص 11.**

الكذب شئ كثير من رواية الكلبى عن أبى صالح وغيره فلابد من تصحيح النقل لتقوم الحجة"[1]

وهذه الكلمات صريحة فى أن كثيرا من المنقولات عن السلف مكذوبة عليهم وقول على الله ورسوله بالرأى المجرد بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية ومن يطالع كتب التفسير يجد الكثير مما يصدق عليه هذا من إطلاق الآراء، أو الاجتهادات الركيكة أو الاستشهادات الباطلة بأبيات من الشعر ما أنزل الله بها من سلطان..

وقد ولع الاخباريون بمجالين كبيرين هما الإسرائيليات وأسباب النزول..

ولا يتسع المجال لإيراد، ولو نماذج من الإسرائيليات لأن هذا يتطلب كتاباً مستقلاً، وقد لفتت الظاهرة إبن تيمية وإبن خلدون. ففند ابن تيمية الاستشهاد بحديث استشفاع آدم بالنبى ﷺ وقال أنه "إنما نقل عن مثل كعب ووهب وابن إسحاق ونحوهم ممن أخذوا ذلك عن مسلمة أهل الكتاب".

وشرح ابن خلدون فى مقدمته أسباب نقل المفسرين هذه الإسرائيليات فقال "والسبب هو أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شئ مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجـود فإنما يسألون أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل الكتاب الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها – مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان، والملاحم، وأمثال ذلك، وهؤلاء مثل: كعب الأحبار ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم، وفى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام، فتتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل وتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها، كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك،

---

[1] **(1) تفسير سورة النور لابن تيمية حققه وخرج أحاديثه محمد إبراهيم زايد وعبد المعطى (دار الوعى – حلب) ص 190 – 191.**

إلا أنه بَعُد صيتهم، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ"[(2)].

وفى كتب التفسير من الإسرائيليات "طامات وظلمات" لا يتسع المجال لذكر نماذج منها وقد يكفى لإعطاء الفكرة المطلوبة أن نستشهد هنا ببعض ما جاء فى فهرس كتاب "الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير" للأستاذ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة.

" الإسرائيليات فى قصة أصحاب أهل الكهف – الإسرائيليات فى قصه ذى القرنيين – الإسرائيليات فى قصة يأجوج ومأجوج – الإسرائيليات فى قصة بلقيس ملكة سبأ - الإسرائيليات فى قصة الذبيح وأنه إسحاق وليس إسماعيل عليه السلام – الإسرائيليات فى قصة إلياس عليه السلام - الإسرائيليات فى قصة داود – الإسرائيليات فى قصة سليمان – الإسرائيليات فى قصة أيوب – الإسرائيليات فى قصة إرم ذات العماد – الإسرائيليات فيما يتعلق بعمر الدنيا وبدء الخلق الخ.. – ما يتعلق بعمر الدنيا – ما يتعلق بخلق الشمس – ما يتعلق بتعليل بعض الظواهر الكونية – ما ذكره المفسرون فى الرعد والبرق – جبل ق المزعوم وحدوث الزلازل – الإسرائيليات فى تفسير (ن والقلم) الخ..."

* * *

هـذا عن الإســرائيليات، أما أســباب الـنزول، فمن أشــهر الكتب "كتاب لباب النقول فى أسباب النزول" للسـيوطى الـذى جمع فيه أفضل ما وجـــده فى كتب أســـباب الـــنزول فضلا عن اجتهاده الخاص. ومع هذا فقد تضمن الأمثلة الآتية:

1. ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتْ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ { 128 النساء }

روى أبو داود والحاكم عن عائشة قالت فـرقت سـودة أن يفارقها رسول الله ﷺ حين أسـنت فقـالت يـومى لعائشة فـنزلت الآية.. وروى الترمذى مثله عن ابن عباس.

ونقـول إن هـذا سـبب لا يمكن أن ينسب إلى النـبى ﷺ ولا إلى أم المؤمــنين ســودة وصــياغة الآية تســتبعد أن يقصد بها الرسول وأم المؤمنين.

---

[2] (1) مقدمة بن خلدون ص 404 طبعة كتاب الشعب.

2. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ {24 الحجر}.

روى الترمذى والنسائى والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلى خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس – فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون فى النصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت أبطيه فأنزل الله ولقد علمنا المستقدمين الآية.

وأخرج ابن مردويه عن داوود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيف الأنصارى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ أنزلت فى سبيل الله قال لا، ولكنها فى صفوف الصلاة.

ونقول أن ذلك يخالف الوقائع. ويناقض السياق وقد فسر السيوطى نفسه فى تفسير الجلالين الشق الأول من الآية "أى من تقدم من الخلق من لدن آدم" والشق الثانى "المتأخرين إلى يوم القيامة"..

3. ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ { النحل 92 }.

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن أبى حفص قال كانت سيده الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف فنزلت ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها!!

4. ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا – أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال أنزلت ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ﴾ فقالوا يا رسول الله سنين أو شهوراً فأنزل الله ﴿وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾.

5. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ { الحج 52 }.

أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر من طريق بسند صحيح عن سعيد ابن جبير قال: قرأ النبى ﷺ بمكة "والنجم" فلما بلغ "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى" ألقى الشيطان على لسانه "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم – فسجد وسجدوا فنزلت ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ { الآية }.

وأخرجه البزار وابن مردويه من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسبه وقال لا يرى متصلا إلا بهذا الإسناد وتفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور.

وأخرجه البخارى عن ابن عباس بسند فيه الواقدى وابن مردويه عن طريق الكلبى عن ابن أبى صالح عن ابن عباس وابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس.

وأورده ابن اسحق فى السيرة عن محمد بن كعب وموسى بن عقبة عن ابن شهاب وابن جرير عن محمد بن قيس وابن حاتم عن السدى كلهم بمعنى واحد.

وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى سعيد بن جبير الأولى.

قال الحافظ بن حجر ولكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا، على أن لها طريقين صحيحين مرسلين أخرجهما ابن جرير أحدهما من طريق الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام والآخر من طريق داود عن هند عن أبى العالية ولا عبرة بقول ابن العربى وعياض أن هذه الروايات باطلة ولا أصل لها.

ونقول أن هذا الكلام يوضح لنا مرة أخرى هيمنة الإسناد، فمع أن بعض الروايات اعتبرت باطلة، إلا أن الطرق الأخرى التى ظاهرها رواة آخرون أقوى كانت سببا لاستبعاد كل ما وجه لها من نقد، مع أن الأمر يتعلق بشخص النبى وأدائه للرسالة، وليس هناك ما هو أخطر من هذا وأدعى لدفع مثل هذه المفتريات، وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات، أفما كان واجبا أن تستبعد هذه الشبهات المتكاثفة التى جاءت فى الرواية من ادعاءات بعيدة فى حد ذاتها عن الحقيقة، وقد علق مصحح لباب المنقول "المطبوع على هامش تفسير الجلالين بمطبعة البابى الحلبى سنة 1343هـ

"العقيدة تعتمد اليقين أو ما يقاربه فى السند لأنها يقين فى موضوعها وآذن الحق مع عياض وابن العربى وغيرهم من المحققين، بل العقل فى هذا الموضوع ينفر كل النفور من صحة هذه الرواية".

6. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾.

عن السدى قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت الآية.

وأخرج ابن سعد عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حـزم نـزلت فى طلحة بن عبيد الله لأنه قـال إذا تـوفى رسـول الله تزوجت عائشة.

وهـذا كلام لا يقبل وطلحة بن عبيد الله من السـابقين إلى الإيمان، ومن العشرة المشهود لهم بالجنة، ومعـاذ الله أن يقـول ما افتراه عليه الرواة، وما لا يقوله إلا أعرابى جلف. كما جاء فى بعض الروايات الأخرى.

7. ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

أخـرج إبن أبى حـاتم عن السـدى أنها نـزلت فى عبد الـرحمن ابن أبى بكر قـال لأبويه وكانا قد أسـلما وأبى هو أن يسلم فكانا يأمرانه بالإسلام فيرد عليهما ويكـذبهما ويقـول فـأين فلان وفلان يعـنى مشـايخ قـريش ممن قد مـات، ثم أسـلم بعد فحسن إسلامه فـنزلت توبته فى هـذه الآية ﴿وَلِكُـلٍّ دَرَجَـاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

وأخرج ابن جرير عن طريق العوفى عن ابن عباس مثله.

ونقول أن وقائع التاريخ وسـياق الآية تكـذبان هـذا الـزعم، وقد كـذبت عائشة هـذه الـدعوى وقـال الحافظ بن حجر ونفى عائشة أصح إسنادا وأولى بالقبول..

8. وعمد هؤلاء إلى سورة من أجمل سور القرآن وأشدها تأثيراً وتعبيراً عن إحدى الفترات النفسية التى تعتور الأنبياء والمفكرين وأضفى الله تعالى على نبيه فيها من كرمه ورعايته ما يعيد إليه الأمل هى سورة الضحى.. فجعلوا سببها وجود جرو تحت سرير النبى: قال الحافظ ابن حجر "قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذ مردود بما فى الصحيح" وما فى الصحيح أفضل من هذا، ولكنه يعرض بطريقة تهبط بروعة السورة وعمق المناسبة ومناخها النفسى وما توحى به من معاناة..

9. وفى تعليل نزول آية ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ {8 الحجرات} هذه الآية المعجزة التى تقدم أساساً لمحكمة عدل دولية، وتضع قواعد

عمله[1] يقول بعض المفسرين إنها "نزلت فى قضية هى أن النبى ركب حمارا، ومر على ابن أُبَىَّ، فبال الحمار فسد بن أبى أنفه، فقال ابن رواحه والله لبول حماره أطيب ريحا من مسكك فكان بين قوميهما ضرب بالأيدى والنعال والسعف" فأنظر كيف هوى هؤلاء بهذه الآية من روعة التقنين المحكم إلى بول حمار.

وقد ادعوا أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب وضربوا المثل بأنه أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقال لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن أجمعون حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب. حين سألهم النبى عن شئ فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه انهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك. (رواه الشيخان)

فتفسير الآية طبقا لهذه الواقعة يمكن أن يجعل الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب فى حين أن الآية عكس ذلك والمعنى فيها عام والجزاء ينطبق على من تتملكه تلك الحالة. ومفتاح الآية أن القرآن الكريم يستخدم كلمة "الفرح" فى أغلب الحالات بالمعنى السيئ لها أى الزهو والفخر والغرور والاستعلاء كما تدل على ذلك الآيات ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، ويوحى تعبير ﴿بِمَفَازَةٍ مِنْ الْعَذَابِ﴾ بأن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا يرون مسلكهم هذا هينا بعيدا عن المساءلة، كما تصور مروان فى حين أنه يتضمن بذرة أعظم الموبقات قاطبة ألا وهو الغرور والاستعلاء والادعاء.

ولم يكن ذنب إبليس أكثر من ذلك ولعل الآية – والله أعلم – قد أنزلت فى أمثال مروان، ولعل الآية لم تحركه إلا لأنه استشعر فعلا فى نفسه ما حذرت منه الآية، والآية تقدم مثالا نمطيا لتفسير يقوم على فهم القرآن وتفسير أخر يقوم على روايات وكيف أن الأول يجعل من القرآن كتاب هداية مطلقة عامة، والثانى يجعل منه كتاب رواية مقيدة خاصة كما أن استشهاد الكتاب المعاصرين وأساتذة الجامعات بهذه الواقعة نقلا عن الكتب القديمة وعرضها كما عرضها القدماء فى كتبهم المقررة لطلبة الجامعات دون أن يخطر لواحد منهم أن يعمل

---

[1] **(1) أنظر محكمة العدل الدولية الإسلامية (الآية 8 من سورة الحجرات) مطبوعات الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل.**

ذهنه وهم أساتذة يعلمون الجيل أو يوجهون الجماهير، يوضح جريرة العقلية النقلية ومدى شلها لبواعث التفكير حتى لدى أساتذة الجامعة فضلا عن طلبتها أو عامة الناس.

* * *

وتعد دعوى النسخ من أكبر ما نسب إلى القرآن واعتبر معرفته من أهم ما يجب لمفسر وجرت قالتهم لمن لم يعرف الناسخ والمنسوخ "هلكت وأهلكت" !

وما من مفارقة تثير الذهول كهذه، فبدعوى خدمة القرآن أعمل هؤلاء المفسرون سكين النسخ وبتروا مئات الآيات.. فهل يختلف عملهم هذا من عمل "جزار اليهود بالبقر.." كما رأى شوقى "برأها من العيوب.. وعقر!! "

لا أدرى كيف واتت هؤلاء المفسرين الجرأة على هذا الجرم العظيم.. وأغرب من ذلك وأعجب أنهم رأوا فى المفسر الوحيد الذى أنكر النسخ أنه "جاهل بهذه الشريعة جهلاً فظيعاً كما قال الشوكانى فى إرشاد الفحول "أو أن قوله ضعيف مردود مرذول" كما قال ابن كثير.

وجاء فى "فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت "وأجمع أهل الشرائع على وقوعه سمعا خلافا لأبى مسلم الأصفهانى الجاحظ من شياطين المعتزلة وهو لا يصح من مسلم ممن يدعى إسلامه إلا بتأويل".

وقال السيوطى "والناس فى هذا بين طرفى نقيض فمن قائل لا يقبل فى النسخ أخبار الآحاد العدول ومن متساهل يكتفى فيه بقول مفسر أو مجتهد والصواب خلافهما ".

فأنظر كيف أصبح النسخ لعبة "المتساهلين"..

ودفع النسخ أحد الشيوخ المعاصرين لأن يقول "فالنسخ يتمشى مع العقل البشرى وأنه لا معارضة بينهما أصلا **فإن الشرائع السماوية ما هى إلا كالقوانين التى يضعها الناس لأنفسهم لتحقيق المصلحة العامة والخاصة بالناس** وأن هذه القوانين تعدل وتغير حسب مقتضيات الزم والتقدم البشرى" وقد جاءت هذه الفقرة فى كتاب له صدر سنة 1978 وأعادها بعلاتها فى كتاب آخر له سنة 1980[1].

---

1 **(1) الدكتور شعبان محمد إسماعيل "مع القرآن" ص 510 (1978) و "المدخل لدراسة القرآن" ص 460 (1980).**

وجاء فى كلام أحد المدافعين – أو قل المتشنجين – عن النسخ عند تفسيره للآية ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

"ووجه الدلالة أن الآية صريحة فى **جواز النسخ على الله تعالى**".

والعجب أن الذين يصدرون هذه التعبيرات الفجة يعيرون من ينكر النسخ بإساءة الأدب! لأنه – كما اتهموا أبا مسلم "أساء الأدب مع الله فى تحمسه لرأى قائم على تحاشى لفظ اختاره جلت قدرته ودافع عن معناه بمثل قوله "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها.. وهل بعد اختيار الله اختيار وهل بعد تعبير القرآن تعبير ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا معنى ذكره بالنص تقريبا عدد من المناصرين لقضية النسخ من المعاصرين الذين ينقلون بعضهم عن بعض، ويتلقف المتأخر ما ذكره المتقدم.

ويماثل ذلك ادعاء بعض العلماء المعاصرين " إن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين اتخذوا من النسخ فى الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة طعنوا بها فى صدر الدين الحنيف ونالوا من قدسية القرآن الكريم وقد أحكموا شراك شبهاتهم واجتهدوا فى ترويج مطاعنهم حتى سحروا عقول بعض المنتسبين إلى العلم والدين من المسلمين فجحدوا وقوع النسخ وهو واقع وأمعنوا فى هذا الجحود الذى ركبوا له أخشن المراكب من تمحلات ساقطة وتأويلات غير سائغة"[(1)].

فهل الذين يقولون أن القرآن محكم هم الذين ينـالون من "قدسية القرآن" أو هم الـذين يعطلـون المئـات من آياته المثبتة وأوامـــره ونواهيه بـــدعاوى ثبت زيفها حـــتى من أنصـــار النسخ أنفسهم؟؟.

وأغرب من هذا وأعجب أن يجيزوا للسنة أن تنسخ القرآن! بحجة أنها وحى! وهنا يصل الإغراض أو الغفلة بصاحبه إلى منتهاه، وعندما يرفض الشافعى ذلك، فإن الفقهاء المتأخرين أنكروا عليه هذا ورأوا فيه سقطة كبيرة فقال الكيا الهراسي "هفوات الكبار على أقدارهم ومن عد خطؤه عظم قدره" وكان عبد الجبار بن احمد كثيراً ما ينظر فى مذهب الشافعى فى الأصول والفروع فلما وصل إلى هذا الموضع قال "هذا الرجل كبير ولكن الحق أكبر منه !" وتطلب الأمر أن يتحايل أنصار الشافعى للشافعى وأن يبحثوا عن محامل يحمل

---

1 **(1) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ج2 ص 70.**

عليها كلامه حتى يمكن أن يتفق مع التيار الغالب الذى كان يجيز نسخ السنة للقرآن متعللين بتأويلات متعسفة.

وذهب المفسرون مذاهب شتى فى عدد الآيات المنسوخة فذهب ابن الجوزى أنها {247} آية. وذهب أبو عبد الله بن حزم "وهو غير أبو محمد بن حزم الأندلسى الظاهرى المشهور" إلى أنها {208} آية. وعند أبى القاسم هبه الله بن سلامة {212} آية. وعند أبى جعفر النحاس {134} آية. وعند عبد القادر البغدادى {66} آية.

وقد عالجنا موضوع النسخ فى سبعين صفحة من كتابنا " الأصلان العظيمان الكتاب والسُنة " **وأثبتنا أن القرآن لا يستخدم كلمة آية** كما نستخدمها نحن بمعنى "نص" ولكن بمعنى قرينة أو معجزة أو دلالة وأوردنا كل المواضع التى جاءت فيها كلمة آية فى القرآن "82 موضعا" وكلها بلا استثناء بهذا المعنى، ومن هنا فإن بناءهم النسخ على ما جاء فى سورة البقرة ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾.. إلخ.. لا يجوز الاستدلال به فضلاً عن أن القرآن استخدم كلمة نسخ بمعنى إثبات أو كتابة فالدعوى ساقطة تماماً..

* * *

ولا نقف جريرة دعوى النسخ على أنها تنسخ كل آيات الحكمة والسماحة والحرية الخ... بل إنها فتحت بابا نعوذ بالله منه، ولا يخالجنا أنه كله من كيد شياطين الأنس من اليهود أو أعداء الإسلام **وأن كل ما تضمنه من إسناد يصل إلى عائشة وعمر بن الخطاب هو محض تلفيق وكان** يجب أن لا تدون، وإذا دونت فعلى أساس أنها أمثلة للدرجة الوقحة التى وصل إليها الوضع.

ولكى يأخذ القارئ فكرة عنها نورد بعض نماذج منها:

1. قالت عائشة كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن رواه الشيخان قال السيوطى "وقد تكلموا فى قولها وهن مما يقرأ من القرآن. فإن ظاهره بقاء التلاوة وليس كذلك وأجيب بأن المراد قارب الوفاة أو أن التلاوة نسخت أيضا ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ فتوفى وبعض الناس يقرؤها وقال أبو موسى الأشعرى نزلت ثم رفعت وقال مكى هذا المثال فيه المنسوخ غير متلو والناسخ أيضا غير متلو ولا أعلم له نظيرا.

2. ورووا عن ابن عمر أنه قال لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله قد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر

3. وعن عائشة قالت كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى مائتى آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن.

4. وعن ذر بن حبيش قال لى أبى بن كعب كم تعد سورة الأحزاب قلت اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية قال إن كانت لتعدل سورة البقرة وان كنا لنقرأ فيها آية الرجم قلت وما آية الرجم قال إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم.

5. وعن حميدة بنت أبى يونس قالت قرأ علىّ أبى وهو أبن ثمانين سنة في مصحف عائشة أن إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً وعلى الذين يصلون الصفوف الأولى قالت قبل أن يغير عثمان المصاحف.

6. وعن عطاء بن يسار عن أبى واقد الليثى قال كان رسول الله إذا أوحى إليه أتيناه فعلمنا مما أوحى إليه قال فجئت ذات يوم فقال إن الله يقول إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكون إليه الثانى ولو كان إليه الثانى لأحب أن يكون الثالث ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب.

7. وأخرج الحاكم في المستدرك عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله أن الله يأمرنى أن أقرأ عليك القرآن فقرأ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ومن بقيتها لو أن ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه سأل ثانيا وأن سأل ثانيا فأعطيه سأل ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب وأن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل فلن يكفره.

8. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى حرب بن أبى الأسود عن أبى موسى الاشعرى قال نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظت منها أن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب.

9. وأخرج بن أبى حاتم عن أبى موسى الاشعرى قال كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات ما نسيناها غير أنى حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا مالا تفعلون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة.

10. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن سعيد عن الحكم بن عتيبة عن عدى بن عدى قال عمر كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم ثم قال لزيد ابن ثابت كذلك قال نعم.

11. حدثنا أبن أبى مريم عن نافع بن عمر الجمحى حدثنى بن أبى مليكه عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف ألم تجد فيما أنزل علينا أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة فأنا لا نجدها قال سقطت فيما أسقط من القرآن.

12. حدثنا ابن أبى مريم عن أبن لهيعة عن يزيد بن عمرو المغافرى عن أبى سفيان الكلاعى أن مسلمة بن مخلد الأنصارى قال لهم ذات يوم أخبروني بآيتين فى القرآن لم يكتبا فى المصحف فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك فقال ابن مسلمة أن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المصلحون والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون.

13. وأخرج الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر قال قرأ رجلان سورة اقرأهما رسول الله فكانا يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله فذكرا ذلك له فقال أنها مما نسخ فألهوا عنها.

14. وفى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا وقنت يدعو على قاتليهم قال أنس نزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا.

15. وفى المستدرك عن حذيفة قال ما تقرأون ربعها يعنى براءة.

16. ورووا عن عبد الله بن زرير الغافقى أنه قال لعبد الملك بن مروان عن على بن أبى طالب " لقد علمنى سورتين علمهما إياه رسول الله ما علمتهما أنت ولا أبوك اللهم أنا نستعينك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك بالكفار.

17. وأخرج البيهقى عن طريق سفيان الثورى عن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال بسم الله الرحمن الرحيم اللهم نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد ونرجو رحمتك ونخشى نقمتك إن عذابك بالكافرين.

وتطلق بعض المصـــادر على هـــذا النص ســـورتى الحفد والخلع وتزعم أنهما كانا فى مصحف بعض الصحابة.

نقول للـذين جـاءوا بهـذه المؤتفكـات ويلكم ! ألم تســـمعوا قـــول الله إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون فكيف تتـأتى هذه التخرصات مع حفظ الله؟

****

كيف أذن جازت دعـوى النسخ على الأئمة الأعلام؟ جـازت لأنهم تصوروا أنه لا يصح أن يتضمن القـرآن أحكامـاً متفاوتة فى الحالة الواحدة. لأنهم يريدون أن يأخذوا النـاس بحكم واحـد، ولو اســتطاعوا أن يضــعوهم على مثل حد الســيف لفعلــوا، ولكن القـرآن لا يقبل هـذا وهو لم يـنزل للعـرب وحـدهم وإنما نــزل للبشــرية جميعــاً، وهو لم يــنزل لعصر واحــد، ولكن نــزل لكل العصور. فكان لابد أن يوجد التفاوت والتعدد، والبدائل فما يصلح لشعب وعهد قد لا يصلح لشعب وعهد آخر والمسلم ما دام يأخذ بآية فإنه يـأوى إلى ركن حصـين ويمسك بـدليل مكين أما الـرد عليه بالنسخ فمردود، لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضاً، فـالقرآن كما قال الرسول " القرآن ذلول ذو وجـوه فـاحملوه على أحسن وجوهه " وكما قال الرسول فى حديث آخر " أن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا. فما عـرفتم فـأعملوا بـه، وما تشـابه فـآمنوا به".

وقد نزلت آيات تحـريم الخمر بتـدريج لأن العـرب ما كـان يمكن أن يقلعوا مـرة واحـدة عن الخمر ولم تنسخ الآية الأخـيرة الآيـات الأولى **لأن من الممكن أن تتكـرر التجربة فيطبق التـدريج لا التحـريم، وقد حـدث هـذا بالفعل** عنـدما أراد القيصر الوثنى فلاديمير قيصر روسيا سنة 987 أن يختار لشــعبه دينــاً ســماوياً فاســتقدم ثلاثة من علمــاء الإســلام والمســيحية واليهوديـة، وكـان ميـالاً للإسـلام ولكن ما أن قيل له إن الإسـلام يحرم الخمر حتى قـال "أسف إن شـعبى لا يطيق الاسـتغناء عن الفودكا " فلو طبق فى روسيا ما طبق فى العـرب، بمعـنى أن لا يصـدم الـروس بـالتحريم، وإنما يسـتخدم التـدريج حـتى يتأصل

الإسلام فى قلوبهم ويمكن التحريم لكسب الإسلام شعب روسيا بأسره ولتغير التاريخ.

من هذا العرض لمعالجة المفسرين يتضح لنا أن اللغويين منهم إفتاتوا على لغة القرآن وأسلوبه، وأساءوا فهمه، وأرادوا تحكيم صناعتهم وما وضعوه من قواعد، وأن الأخباريين سودوا صفحات كتبهم بالإسرائيليات وبكل ما جاء من "لغو" فى القرآن وأعملوا سكين النسخ دون أن تأخذهم رأفة..

ويماثل هذا الخطأ فى المعالجة أنهم عمدوا إلى تقطيع أوصال القرآن كل آية على حدة فى حين أن القرآن لا يحدث أثره أو يحقق رسالته إلا نتيجة لتلاحم آياته بعضها ببعض، وتقطيع أوصال القرآن كان يعنى قتله، ثم العكوف على دراسة كل شلو من أشلائه.. وهو ما يمكن أن يقدم لنا مادة أو معلومة، ولكنه لا يقدم حياة، ولا يثير عاطفة ولا يبعث على عمل، ولا يؤدى إلى هداية...

وهذا هو المضمون الحقيقى لتفريغ القرآن من ثوريته..

وعنـــدما يفكر الإنســـان مليا فيما فعله المفســـرون وما عكفوا عليه القرون الطوال فإن الحيرة تتملكه كيف هـان عليهم القـرآن حـتى يقحمـوا هـذه النقـول الركيكة والأقـوال السـقيمة والمزاعم المسـفة.. وكيف لم تتوقف أيـديهم وهى تعُمل سـكين النسخ بــتراً وتقطيعــاً، وكيف يتفق ذلك مع ما روى عن هــؤلاء المفســـرين من تقـــوى وإخلاص فـــإذا لم يكن قد تحـــرك فى نفوسهم أو حاك فى قلوبهم شئ فإن هذا يكـون دليلاً فـذاً على قوة روح العصـر، وأن عوامل التحـول الـتى أشـرنا إليها وصـلت إلى النقيض بحيث إرتكب هؤلاء الأسلاف جريمة فى حق القـرآن وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وقدموا شواهد لأعداء القرآن وهم يحسبون أنهم يدافعون عن القرآن.

لعل الصوت الوحيد فى العهد الأول الذى إستشعر الخطأ كان صوت أحمد بن حنبل – عندما قال "ثلاثة كتب لا أصل لها التفاسير، والمغازى، والملاحم"..

وفى عصـرنا الحـديث ارتفع صـوت عـالمين من خيرة الفقهاء...

هذا هو السيد رشيد رضا يقول:

"ثم استقر الرأى العام عند جماهير المسلمين بعموم التقليد على أن عقائد الإسلام يجب أخذها من كتب الكلام، وأحكامه من كتب الفقه المذهبية وآدابه وأخلاقه من كتب التصوف وبهذا أمست فائدة القرآن محصورة فى التبرك والتعبد بتلاوة ألفاظه – ندبا لا وجوبا – بغير فهم له ولا عمل به، بل لما ورد من أن لتاليه بكل حرف عشر حسنات، وأنه لا يفترض على **مسلم أن يعلم أو يقرأ منه شيئاً إلا ما تصح به صلاته كسورة الفاتحة، بل هبط بكثير منهم الجهل بالقرآن والأعراض عن القرآن والكفر بالقرآن أن حرموا أخذ الدين من القرآن".**

وهذا هو الفقيه المجتهد الشـيخ محمـود شـلتوت يقول:

".. وكثيراً ما تفسر الآية على مقتضى القواعد الأصولية التى استخلصها أرباب المذاهب من الفروع الفقهية واتخذوها أصولا تحاكموا إليها فى فهم القرآن والسنة واستنباط الأحكام. ولم يقف ذلك عند التشريع وآيات الأحكام. بل تعدى إلى العقائد وآراء الفرق، فتراهم يقولون هذه الآية لا تتفق ومذهب أهل السنة فهى مؤولة بكذا وكذا، وكما يقولون هذه الآية لا تتفق ومذهب الحنفية وتأويلها كذا وكذا، وكما يقولون هذه الآية أو تلك الآيات – وربما نيفت على السبعين – لا تتفق ومشروعية القتال فهى منسوخة.

وهكذا صار القرآن فرعا بعد أن كان أصلا وتابعا بعد أن كان متبوعا وموزونا بغيره بعد أن كان ميزانا. يقول الله تعالى ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته الصحيحة، ولكن هؤلاء عكسوا القضية وقلبوا التشريع وردوا كتاب الله وسنة رسوله إلى ما لهم من آراء ومن مذاهب.

-2-

إيثار المنهج التقليدى النقلى
على المنهج التحررى القرآنى

لم يقتصر افتيات الفقهاء على ما وضعوه من غشاوات التفسير التى أشرنا إليها فى الفصل السابق. بل إمتد أيضا إلى السنة التى هى عدتهم وعمادهم. لأن السنة وإن كانت من القرآن بمثابة التطبيق من المثال، وبالتالى تكون محكومة بمقتضيات الواقع، إلا أنها ما كانت لتخالف روح القرآن ولهذا اتسمت بقدر من العقلانية والتحررية. ولكن لما كانت قوى التحول التى أشرنا إليها والتى قضت على الخلافة الراشدة وجاءت بالملك العضوض والحكم الاستبدادى قد ضيقت السبل على الفقهاء، فإنهم أبدعوا منهجاً يتفق مع الأوضاع التى كانت تضيق بكل تحررية، وترفض إعمال العقل ولا تسمح إلا بالعمل فى إطار الوضع القائم لهذا فإن الفقهاء إفتاتوا على السنة أيضاً، ولا جدال أن هذا كان وراء وضع أحاديث عديدة لتتلاءم مع الأوضاع السائدة، فإذا ظهرت الحاجة ابتدعت الوسيلة. وقد يكون هذا المنهج أكثر وضوحاً وصراحة فى قسرهم وتطويعهم لأحاديث لتتفق معهم، فالحديث النبوى المشهور عن معاذ عندما أجاب الرسول بم يقض فيما لم يأت فى القرآن أو السنة **"أجتهد رأيى ولا الو"** أصبح فى أيدى الفقهاء مخالفاً لنصه وروحه إذ إعتبر الفقهاء أن الاجتهاد ليس إلا قياساً فإذا إتحدت العلة فى قضية جديدة، مع قضية قديمة جاء فيها قرآن أو سنة، حكم فيها بما حكم فى الأولى، وبهذه الطريقة أصبح الاجتهاد قياساً (كما صرح بذلك الشافعى) وقياساً محدوداً مبنياً على حالة واحدة هى إتحاد العلة، وأين هذا من كلمة معاذ الطليقة الحرة "**أجتهد رأيى ولا الو..**"

وكان هذا المنهج أى الابتعاد عن إعمال العقل أو تقبل الحرية وراء تفضيلهم للحديث الضعيف على القياس، وهو مبدأ أخذ به معظم الأئمة كما أثبتنا ذلك فى الجزء الثانى من كتاب "نحو فقه جديد" وهو الخاص بالسنة[1] **إذ هو فى حقيقة الحال لا يعد إعمالاً للسنة قدر ما يعد فراراً من استخدام العقل أو إبداء الرأى.**

---

1 **(1) أنظر كتاب السنة من ص 104 إلى ص 108.**

وأصرح من هذا كله إغلاقهم بـاب الاجتهـاد بالكليـة، وكـان السبب الذى أبداه بعضـهم أقبح من الـذنب. ذلك أنهم رأوا أنه لا يمكن أن يظهر مجتهد فى مثل منزلة الأئمة الأربعة. فكأنهم تألوا على الله وتحكموا فى المصائر..

وأعجب شئ فى هذه المأساة، وما يدل على قوة وتغلغل روح التقليد أن أئمة المذاهب الأربعة أنفسهم وجهوا الناس لعدم الالتزام – ضرورة – بهم وأن آراءهم صواب يحتمل الخطأ..

كان العصر عصر انغلاق.. وكان لابد أن يكون المذهب مذهب انغلاق فعجزوا من التكييف السليم للسنة.

* * *

لقد وضع الله تعالى مستويين للتشريع:

الأول: مستوى التأبيد، وهو خاص بالمبادئ التى تكون واجبة التطبيق فى كل زمان ومكان، وهذا المستوى لا نجده إلا فى القرآن.. وهو سر اقتصار القرآن على الكليات العامة دون التفاصيل فى مجال الأعمال فقد ذكر القرآن صلاة وزكاة، وحج وصوم، ولكن لم يحدد تفاصيل ذلك. لحكمةٍ بالطبع، هى أنه لو ذكر تفاصيل لربما كان فيها ما يوجب حرجاً على أجيال ستأتى فى أزمان مقبلة ولشعوب أخرى ستؤمن بالإسلام، ولهذا لم يذكر القرآن تفاصيل، ولكنه أسهب وتوسع فى ذكر القيم من حرية، وعدل، وكرم، ومساواة، وصدق الخ... لأن هذه القيم هى معايير للعمل والسلوك وبمثابة النجوم التى تهدى الناس وتحول دون الضلال أو الانحراف، ومن هنا كان لهذه القيم طبيعة التأبيد..

أما المستوى الثانى: فهو مستوى تطبيق المبادئ التى أشار إليها القرآن، ولما كان التطبيق لا يعنى إلا التفاصيل فقد أوكل القرآن مهمة وضع هذه التفاصيل إلى الرسول فيما أطلق عليه "البيان" وقام الرسول بذلك بناء على وحى سنى يختلف كيفية ومنزلة عن الوحى القرآنى[1] - فعرف المسلمين كيف تقام الصلاة وعدد ركعاتها وسجداتها وماذا يقال فى كل منها وكيف يؤدى الصيام - وعرفهم على مناسك وشعائر الحج..

ولكن الرسول فى لفتة بارعة، ولها مغزى عظيم **نهى عن أن يكتب حديثه. فميز بذلك بين سنة عملية** رآها المسلمون جميعاً وشاهدوها ونقلها جيل الرسول إلى الجيل الذى جـاء بعده، وهذا الجيل الثانى إلى الجيل الثالث حتى

---

1 **(1) لإيضاح ذلك أنظر كتاب السنة (الجزء الثانى من كتاب نحو فقه جديد) من ص 194 إلى ص 197.**

وصلت إلينا، **وهذه فى حقيقة الحال هى الجديرة بكلمة سنة، لأن سنة تعنى فى اللغة ممارسة ما.. وليست حديثا يقال.** ميز الرسول بين هذه السنة العملية وبين الحديث الذى يغلب أن يتناول تفاصيل عديدة أو توجهات قد لا تتضمنها السنة العملية، وقد نهى الرسول عن أن يكتبوا حديثه، وأمر من كتب شيئاً بمحوه، وهى قضية ثابتة لا داعي للتمحك والمحاجاة فيها، وأن يكون الرسول قد أذن لواحد أو أثنين فى الكتابة يدل على أن الأصل هو عدم الكتابة، وأن الإذن استثناء، ولو كان تدوين السنة واجباً لقام بذلك أبو بكر الذى أرسل جيش أسامة فى وقت ثار العرب فيه على الإسلام ووضعوا الخطط للهجوم على المدينة لأنه ما كان يقبل هوادة فى تطبيق أمر الرسول، ولم يدون عمر أو عثمان أو على السنة، وإنما دونت السنة **على رأس المائة الأولى فى عهد عمر بن عبد العزيز.**
ونهى الرسول عن تدوين حديثه إنما يعود لأن الرسول رفض أن يكون لحديثه بما فيه من تفاصيل صفة التأبيد التي يكتسبها بالكتابة، لأن هذا التأبيد هو ما رفضه القرآن. إذ لو أراده لأدرجه وذكره، ومعنى هذا أن التفاصيل التى تحدث عنها الرسول تُتُبَّع ما ظلت صالحة، وما أثبتت تلاؤمها مع الأوضاع، وهذا أمر يمكن أن يوجد فى جيل الرسول والأجيال القريبة التى جاءت بعد ذلك، ومن أجل هذا حرص أبو بكر وعمر وبقية الخلفاء الراشدين على اتباع ما أمر به الرسول.. ولكن عندما تمر مئات السنين، وتحدث أوضاع جديدة وتعقيد وتشابك لم يكن للمجتمع النبوى عهد به بحيث لا تتلاءم مع ما أمر به الرسول فيمكن التوقف فيها والعودة إلى القرآن لاستمداد أحكام تتفق مع روحه وإن اختلفت فى صورها أو تفاصيلها مع ما تضمنته الأحاديث.

ومن المهم توجيه الأنظار إلى أننا فيما ذهبنا إليه إنما نؤكد ما أراده القرآن وما أمر به الرسول وما يتفق مع السنن التى وضعها الله تعالى للمجتمع الإنسانى، **ومن المهم أيضا أن يعلم الناس أن الرسول لم يشأ أبداً لأحاديثه أن تأخذ صفة التأبيد التى فى القرآن..**

وفيما يلى بعض ما جاء عن الرسول فى ذلك:

- عن أبى هريرة أنه قال: "خرج علينا رسول الله ونحن نكتب الأحاديث فقال ما هذا الذى تكتبون قلنا هم وتركوا كتاب الله.
- وعن عامر الشعبى عن قرظة بن كعب قال "خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى (صرار) ثم قال أتدرون لم مشيت معكم قالوا نعم نحن أصحاب رسول الله مشيت

معنا تريد أن تشيعنا وتكرمنا فقال إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم جّودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله أمضوا وأنا شريككم فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر".

- "عليكم بكتاب الله وسترجعون إلى قوم يحبون الحديث عنى، ومن قال علىَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار. فمن حفظ شيئاً فليحدث به" (ابن الضريس عن عقبة بن عامر حم ك عن أبى موسى الغافقى).
- وحديث "ألا إن رحى الإسلام دائرة. قيل فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: اعرضوا حديثى على الكتاب، فما وافقه فهو منى وأنا قلته". (طب وسمويه عن ثوبان).
- "سئلت اليهود عن موسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا (وزاد فى المنتخب: وسئلت النصارى عن عيسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا) وإنه ستفشو عنى أحاديث، فما أتاكم من حديثى فاقرؤوا كتاب الله واعتبروه. فما وافق كتاب الله فأنا قلته، وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله" (طب عن ابن عمر).

"ستكون عنى رواة يروون ظهوره إلى متطلبات العصر من طاعة للسلطان وتوجيه الجمهور للرضا والتسليم وتميز الأغنياء الخ ...

وسنعرض هنا لثلاثة أحاديث لا ترقى لمرتبة الصحيح المؤكد، ومع هذا فإنها هيمنت على المجتمع الإسلامى وعلى الفكر الإسلامى طوال ألف سنة تقريباً، ولا يزال بعضها رغم القوارع والمُثلات – يحتل مكانا من نفوس بعض الناس..

الحديث الأول: الأئمة من قريش.. قضى هذا الحديث بأن تحصر الخلافة فى قريش وظل هذا مفهوماً ومقرراً لبضعة قرون، ولم يخطر لأحد من الذين أعملوا هذا الحديث أنه لو كان صحيحاً لكان يجب أن يكون أول من يعلم به أبو بكر، الوزير الأول للرسول أو عمر الوزير الثانى أو أبو عبيدة أمين هذه الأمة، وقد حضر الثلاثة يوم السقيفة العصيب الذى كاد أن يشق وحدة المسلمين ولو كان هذا الحديث عند أحد من هؤلاء الثلاثة وأعلنه لقضى الأمر وحسم الخلاف ولكنه لم يكن معروفاً، وأن يجهل هؤلاء الثلاثة وهم أدنى الناس إلى الرسول وأخصهم فيما يتعلق بإدارة الدولة، ثم يأتى بعد قرن أو أثنين علماء من أقاصى آسيا ليستخرجوا هذا الحديث أمر يضعه أمام خيارين. فإما أن هذا الحديث صحيح وجهله مع ذلك أقرب الناس إليه..

وإما أنه موضوع.. فإذا كان الأول فإن جهل أقرب الناس إليه يسقطه، ويثير شبهة قوية نحوه أو يجعله قابلاً للتطبيق عندما كانت الشوكة فى قريش، وما كان يمكن أن يدوم هذا إلا لمدة محدودة.

ومثل هـذا التحقيق كـان من الممكن أن يتوصل إليه رجل متوسط الـذكاء لأنه لا يتطلب نبوغـاً، ولكن المسـلمين كـانوا قد رفضوا استخدام العقل وآثروا اتباع النقل..

والحديث بعد، يخالف مبادئ القرآن التى تقرر تداول السلطة ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ والتى تجعل الأمر لذى التقوى والعمل وليس وقفاً على قبيلة أو أسرة وقد طلب نوح أن يشرك ذريته فأدبه الله تعالى ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ كما يخالف المعهود من الرسول الذى لم يجعل لأحد من آله فضلاً بحكم النسب يغنيه عن العمل "يا فاطمة أعملى فأنى لا أغنى عنك من الله شيئا".

الحديث الثانى: المرأة عورة.. مع أن الحديث ليس بالحديث الصحيح "وتفرد به الترمذى عن سائر أصحاب السنن ولم يصفه بالصحة بل أكتفى بوصفه بالحسن والغرابة وذلك لأن بعض رواته ليسوا فى الدرجة العليا من القبول والتوثيق، بل لا يخلو من كلام فى حفظهم مثل عمرو بن عاصم وهمام بن يحيى[1]" فقد اتخذ قاعدة عامة، وأى عار يمكن أن يلحق أمة مثل أن يقال عن نصفها إنه عورة، ولم يستخدم القرآن هذا اللفظ النابى إلا فيما وضع له، وليس للمرأة التى جعلها الله قسيمة الرجل ولها ما عليه بالمعروف وقال الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ .﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

ولما زعموا أن المرأة عورة أوجبوا سترها، وأفترضوا أن يتم هذا من رأسها حتى قدمها، فإذا حكمت الضرورات بإظهار اليدين والوجه، فلا مناص..

ولا شئ أدل على هيمنة روح العصر القديم وإتباع الأقـوال من إعمـال هـذا الحـديث الـذى يخـالف صـريح القـرآن ومبـادئ الإسلام وروحه، ولا يرقى إلى مرتبة الصحيح..

---

1 **(1) فضيلة الشيخ القرضاوى فى كتاب "النقاب للمرأة بين القول ببدعته والقول بوجوبه" مكتبة وهبه ص 57.**

الحديث الثالث: "من بدل دينه فاقتلوه" وهو حديث آحاد مما لا يعمل بها فى العقائد، وهو من رواية عكرمة الذى استبعده مسلم، ومع ذلك فقد تمسك الفقهاء بهذا الحديث جميعاً وبنوا عليه حد الردة. بعد أن أضافوا صياغتهم الخاصة "من جحد معلوماً من الدين بالضرورة" وأصبح هذا الحديث عندما يفسر فى ضوء الإضافة الفقهية سيفا مسلطا على حرية الفكر

والحديث يخالف عشرات الآيات التى تنص صراحة على حرية الفكر والإعتقاد دون قيد أو شرط ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. ويتناقض مع طبائع الأشياء التى تجعل الاعتقاد أمراً شخصيا إراديا يقوم على اقتناع ورضا ولا يمكن أن يفرض بالقوة، ولا قيمة لفرضه بالقوة.

بل أغرب من هذا أنه يتناقض مع "السنة" أى عمل الرسول لأن من الثابت إن الرسول لم يقتل أحداً ممن ارتدوا على عهده، وكان عددهم يزيد على أصابع اليد، وأن الحالتين أو الثلاثة التى أجاز فيها الرسول قتل مرتد فلأنه فعل مع ردته ما يوجب القتل، وقد حررنا ذلك فى كتابنا "الإسلام وحرية الفكر"[1].

فهذه أحاديث ثلاثة ركيكة، مخالفة لآيات القرآن، وعمل الرسول، ومبادئ المنطق والعقل ومع هذا أعملوها وكانت من أكبر أسباب تخلف المسلمين.

وهى تؤكد ما ذهبنا إليه من أن الفقهاء هربوا من القرآن إلى الأحاديث التى تتفق مع الأوضاع القائمة حتى لو كانت ضعيفة، ثم لما طبقت المذاهب تركوا الأحاديث إلى قول إمام المذاهب ثم أغلقوا باب الاجتهاد، وقضوا على الناس بالتقليد، أى بالعمل دون سؤال ودون معرفة حكمة وهو ما لحظه الشيخ محمد الغزالى عندما قال:

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث.

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة.

ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين.

ثم هجروا المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخبطهم[2]

---

1 **(1) الإسلام وحرية الفكر للمؤلف.**

2 **(2) فقه السيرة الشيخ محمد الغزالى – دار الكتاب العربى – ص 33.**

وغـنى عن القـول أن هـذا المسـلك من الفقهـاء عطل إعمـال القـرآن، وشل روحه المبدعة وانطلاقاته الثورية والتحررية..

-3-

إقحام مضامين لاهوتية وصوفية

كـــان من أبـــرز خصـــائص الإســـلام ابتعـــاده عن التعقيد اللاهـــوتى وإقامة قاعدته على أســـاس الفطـــرة، ولم تتطلب الصورة التى عرضها لله تعالى أو للرسول.. أو حتى لعالم الغيب لاهوتا معقداً، وحتى البعث بعد الموت أقامه الإسـلام على فكـرة أن من خلق الإنسان من طين قادر على بعثه من التراب.. وحتى عالم الغيب فإنه أقامه على أسـاس مـيزان لا يظلم مثقـال ذرة. فكـان رمـزاً للعدالـة، والعدالة عقلانية واسـتقامة. ولهـذا كـان الإيمان الإسلامى أيام الرسول إيمانا صـافيا لا تعكـره شـكوك أو تشوبه شوائب..

ولكن الشعوب التى دخلت الإسلام دون أن تتشرب قيم الإسلام أو تألف القرآن ونسقه أو تتعرف على الرسول وتستضىء بهديه. لم يكن لديها هذا التقبل السهل السائغ، ووقفت عند بعض الآيات المتشابهات، والتى أمرنا الرسول أن نؤمن بها لا أن نتعسف الوسائل لنعرف كنهها وكان لهم عن هذا مندوحة لو سلموا قلوبهم لله وللقرآن.

والقرآن نمط فريد فى الكتابة يقف بين الشعر والنثر، وهو يضرب أمثلة، ويثير أخيلة لتحقيق الأثر النفسى المطلوب ومما يثير الدهشة أن تتسبب آيات الصفات فيما أحدثته من انشقاق فكرى خطير. لأن أسلوب القرآن يقوم على الرمز والمجاز، ولأنه يستخدم التصوير الفنى، وهذا ينطبق على كل أو معظم الخطاب القرآنى، وقد تحدث القرآن أكثر من مرة عن اليد أو العين، أو الكلام بطريقة رمزية للغاية فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ {46 سبا}. وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهل يمكن القول إن للعذاب، أو القرآن، يداً لا تشبه أيدى الناس كما يقول الوهابيون؟

وقد أنطق القـــرآن الســـماء والأرض والحيـــوان، وجعل الشمس والقمر يسجدان. لأن القرآن يريد أن يضرب من الأمثلة ما يصل إلى القلوب وما يؤثر فى الأفئدة. لأنه يريد الهداية..

من الغفلة إذن أن نأخذ كلمات القـرآن الـتى تتعلق بـذات الله تعالى، أو الغيبيات المأخذ المادى الذى نألفه ونستخدمه فى حياتنا الـدنيا.. فهـذا قيـاس لا يسـتقيم، وقد فهم الصـحابة ذلك

ورضوه واطمأنوا إليه، ولكن هـذه الأقـوام حديثة العهد بالإسـلام وقفت متحيرة ثم ظنت أنها وجدت المخرج فى أن تقـول إن لله تعالى يداً ليست كيد البشر وعينا ليست كعين البشر، والإسـتواء معلـوم والكيف مجهـول، وأيـدوا هـذه الـدعاوى ببعض الأحـاديث التى لا يخالجنا شك فى أنها موضـوعة.. وهـذا كله خلط لا يجـوز وهو يوقعهم على مشارف التجسيم وهو أسوأ صور الوثنية..

فى مقابل هؤلاء أراد المعتزلة "تنزيـه" الله عن الكلام لما فى ذلك من شبهة تجسيم فقادهم ذلك إلى متاهات أوقعتهم فى تناقضات، وأبعدتهم عن السلامة، وكانوا فى غنى عن هـذا كله لو قـالوا ليس من شـأننا أن نبحث فى هـذا لأنه يتعلق بـذات اللـه، وكل ما يتعلق بذات الله هو مما لا تدركه الأفهام والعقـول فبحثنا فيه ضلال، وأننا نسـتدل على وجـود الله وكماله وقدرته بما جـاء فى القــرآن ونعمل بما أمر به الرســول من التفكــير فيما خلقه الله، وليس ذاته أو صفاته..

ولكن المعتزلة الذين كانوا محملين برواسب حضارية معقدة أرادوا غير ذلك، وأدى بهم نفى صفات الله الأزلية إلى القول بأن الله ليس له علم ولا قدرة ولا حياة، ولا سمع ولا بصر ولا صفة أزلية، وأن الله لم يكن له فى الأزل إسم ولا صفة..

وأن الله غير خالـق لإكساب الناس ولا لشـىء من أعمـال الحيوانات، وأن الناس هم الذين يقدرون على إكسابهم.

ووضعوا الفاسق بالمنزلة بين المنزلتين، فلا هو مـؤمن ولا هو كافر.

وأوجبوا على الله إثابة المحسن ومجازاة المسىء وإلا لم يكن عادلاً

وتسـاءلوا عن مكـان الله تعـالى وهل هو فى أى مكـان أو فى كل مكان أو فى غير مكان.

وقال "النظام" من شيوخهم – إن الله تعالى لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم ولا يقدر أن ينقص من نعم أهل الجنة ذرة لأن نعيمهم صلاح لهم والنقصان مما فيه الصلاح ظلم، ولا يقدر أن يزيد فى عذاب أهل النار ذرة ولا ينقص من عذابهم شيئاً ولا أن يخرج أحداً من أهل الجنة عنها، ولا يقدر أن يلقى فى النار من ليس من أهل النار [1].

وذهب أبو الهزيل العلاف إلى فناء مقدورات الله عز وجل حتى لا يكون بعد فناء مقدوراته قادراً على شئ ولأجل هذا زعم أن نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار يفنيان ويبقى حينئذ أهل

1 **(1) الفرق بين الفرق – لعبد القاهر الاسفراينى – ص 149.**

الجنة وأهل النار خامدين لا يقدرون على شئ، ولا يقدر الله عز وجل فى تلك الحال على إحياء ميت أو إماتة حى ولا على تحريك ساكن ولا عن تسكين متحرك ولا على إحداث شئ[1].

وذهب إمام الحرمين إلى أن الله تعالى يعرف الكليات دون الجزئيات، وأن من المستحيل عليه تعالى أن يعلم ما لا يعلمه.. وخاض آخرون فى مجالات فلسفية كالجوهر والعرض والجزء الذى لا يتجزأ، والطفرة، والحركة والسكون، وهى مجالات فلسفية، ولكنهم دخلوها من مدخل الدين فأساءوا إلى الدين وأساءوا إلى الفلسفة..

وانتهت هذه التخرصات والانحرافات الفكرية إلى وقوع فتنة "خلق القرآن" التى استغلت سياسياً وأدت ليس فحسب إلى انشقاقات فكرية، ولكن إلى سياسات حكومية إرهابية تدعى الدفاع عن العقيدة.

إن الأثر المدمر لظهور هذه الانحرافات المذهبية لم يقتصر على شق وحدة الأمة، وحدوث فتن وصراعات ما بين صفوفها على أسس مذهبية، ولكن هذا التطور بأسره نقل مسرح العمليات ومعسكر المعركة من الثورية التى أرادها الإسلام إلى اللاهوتيات التى لا تمس فى قليل أو كثير قضايا المجتمع، وواقع الناس، ومشاكلهم وأوضاعهم الاقتصادية والسياسية، وليس أدل على بعدها من أن المعتزلة التى جعلت شعارها العدل وبذلت كل سفسطتها فى إلزام الله به لم تحاول أن تلزم به المأمون الذى ذهب مذهبها، والذى ترجمت فى عهده كتب أرسطو وأفلاطون دون أن يستفاد منها فى مجال تنظيم الدولة...

والغريب أن من أصولهم الخمسة – الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – فأين هذا الأصل وقد كان استبداد الخلفاء فاشيا واستغلال الجماهير شائعاً بل يا ليتهم فى تحرى العدل والتنزيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وفى جميع هذه العهود كان الدين (سواء كان الديانة المصرية القديمة، أو المسيحية أو الإسلام) هو أصل التشريع، وجذر الضمير، ومحور التاريخ.

وعندما تلاقت مصر والإسلام – أو قل تعانقت مع الإسلام – فإن هذا كان تكليلاً لمسيرة طويلة بدأت منذ أن تزوج إسماعيل هاجر المصرية ومن سلالته ظهر رسول الإسلام...

---

1 (2) **المرجع السابق ص 139.**

وتجلت عندما دخل عمرو بن العاص مصر، محرراً لها من الاحتلال البيزنطى، فوجد التأييد من أقباط مصر، ومن ناحيته، فإنه بمجرد انتصاره أعاد البطريرك بنيامين الذى كان مختبئاً من ملاحقة البيزنطيين إلى مركزه، وأعطى الكنيسة التى كانت محرمة فى العهد البيزنطى – الشرعية والحرية.

ويلحظ أن المسيحية عندما دخلت مصر أول مرة تورطت فى صراع مرير مع الديانة المصرية القديمة خاصة كهنة إيزيس التى ظل المصريون يؤمنون بها حتى القرن الخامس الميلادى عندما اضطروا إلى الفرار إلى الصعيد حتى تمكن أسقف أسوان تيودوس فى حكم الإمبراطور يوستنيانوس (527-565م) من تنكيس الصنم وتحويل المعبد إلى كنيسة[1] فلم تكن المسيحية بالراسخة عندما جاء عمرو بن العاص إلى هذه البلاد سنة 640 أى بعد مائة سنة فحسب من سقوط آخر قلاع الوثنية.

ولكن شيئاً من هذا الصراع لم يحدث بين المسلمين وبين القبط، على العكس كان الود والتفاهم سائداً، وكانت سماحة الإسلام من البواعث التى جعلت الكثير منهم يؤمن بالإسلام، **وكان هناك رباط آخر بين الإسلام، وبين الدين المصرى القديم هو إبراز دور الدار الآخرة وتأكيد وجودها وهناك شبه عجيب بين ما جاء فى بعض ما يضعنا فى مأزق هو: أين نجد هذه النظرية؟..**

إننا لم نكن بحاجة للبحث طويلاً أو بعيداً لأن هذه النظرية موجودة فى أعماق التاريخ المصرى، وقد كانت هى الـتى كـونت الحضــارة المصــرية، ومكنت مصر من تحقيق إنجازاتها العظمى فى السلم والحرب، تلك هى الدين. الذى يعنى عملياً الإسـلام إذ هو نهاية مسيرة مصر فى الدين وهو دين 95**%** من السكان.

والذى حال دون أن يكون الإسلام دعامة الحكم هو أن محمد على تنكر لما تعهد به لشيوخ الأزهر لأنه وجد أن هذا سيغل يده عن الحكم المطلق الذى يعتزمه، ولم يكتف بهذا، بل إنه فرق وحدة الشيوخ وتوصل إلى اصطناع بعضهم بحيث عجزوا عن التصدى له، ثم بدأ إرسال البعثات للخارج لتأتيه بعلم وفن وصناعة أوروباً، ولم يكن هذا سيئاً، ولا هو يتعارض مع توجهات الإسلام الذى يريد العزة للمؤمنين ولكن محمد على كان ضد الإسلام، كما كان ضد المصريين ولم يستعن بهم إلا مضطراً، وكانت خطته تلك هى خطة خلفائه الذين حكموا مصر، وكانوا – باستثناء إبراهيم باشا الذى مات ومحمد على حى - مجردين من الموهبة، بل يمكن القول أن أسرة محمد على

---

1 **(1) أنظر سندباد مصرى تأليف الأستاذ حسين فوزى ص 266**

كانت أسرة فاسدة متحللة، وكان أفرادها – باستثناء قلة نادرة – من الصغار الذين تستولى عليهم الشهوات ويفخرون بالمظاهر، وفى بيت فؤاد كانت إحدى المربيات – مس برودينت – تعمل لتحويل أبنائه إلى المسيحية، ولم تكن تحاول ذلك سراً فقد ذكرت لإحدى سيدات إلسراى "إنها سوف تلقنهم دينها لأن ضميرها لا يسمح لها بأن تفعل غير ذلك" !!

وكـان يمكن للانقلاب العسـكرى فى 23 يوليو أن يكـون أقـرب إلى الإسـلام من أسـرة محمد على، فلم يكن ضـباطه بعيدين عن الإتجاه الإسلامى، ولكن الصراع على السلطة فـرض على عبد الناصر ما فرضه من قبل على محمد على، وثمة تشابه غـريب بين مسـلك البكباشى محمد على والبكباشى جمـال عبد الناصر نحو الاتجـاه الإسـلامى، ففى الحـالتين كـان الإسـلام هو الذى رفعهما إلى السلطة: وفى الحالتين أعلنا حرباً شعواء على الإسلاميين الـذين مكنوهما من السـلطة، ووصـلت هـذه الحـرب إلى أشـدها عند عبد الناصـر، وانحطت إلى درك الخسة والنذالة عند اسـتخدام التعـذيب بصـفة منهجية ومقـررة وهو أمر لم يقع فيه محمد على..

وبتـأثير الصـراع على السـلطة بين عبد الناصر والإخـوان المسلمين أصـبح من الخطـوط المقـررة فى السياسة المصـرية مقاومة التيار الإسلامى، وملاحقته وهذه فى الحقيقة هى مأسـاة 23 يوليو، والسبب الحقيقى فى عدم تجاوب الشـعب مع نظامها الحـاكم من عبد الناصر حـتى الآن (نحن لا نتكلم عن المضـللين والأدعياء أو المنتفعين أو المتورطين فى مآثم الناصرية).

إن هــذا الخطأ التــاريخى من محمد على حــتى جمال عبد الناصر، والذى أدى إلى سقوطهما وانتكاس محاولتهما هو ما يجب إصلاحه الآن.

وإذا أضـفنا إلى هـذا أن الإسـلام قد تغلغل فى وجـدان المصــريين كـأفراد وعــادات وعــرف وأنه حــتى الأقبــاط والمستوطنين تأثروا بـه، وأنه لا يمكن لأى نظـام يحـترم نفسـه، ويحترم شعبه أن يتجاهل هذا الجـذر المتغلغل فى حيـاة الشـعب وتاريخه منذ أن ظهر على مسرح التاريخ حتى العصر الحديث..

إذا انتهينا إلى هـذا.. فـإن النتيجة أن الإسـلام هو المؤهل وحـده لأن يكـون قاعـدة الثورية المصـرية لأنه أشد المـذاهب التصـاقاً بمصر وتجاوبا مع حضـارتها، ولأنه الوحيد الـذى يقـدم "نظريـة" فى أسـمى صـورها فى القـرآن الكـريم، ولأن هـذه النظرية بالـذات سـتكفل المشـاركة الجماهيرية لتحقيق التغيـير الشامل الذى هو هدف الثورة.

* * *

يبقى أمر آخر يتطلب إيفـــاء الموضـــوع حقه الإشارة إليه. هو هل هناك بديل آخر عن الإسلام؟ هل يمكن أن نجعل نظرية الثورة اشتراكية أو ديمقراطية؟

أما الاشتراكية فهى مستبعدة نظرياً وعملياً، لأن الاشتراكية لا محل لها فى دولة تؤمن بالإسلام، فالإسلام فيه أفضل ما فى الاشتراكية – وهى العدالة – ويتحرر من أسوأ ما فيها أى الديكتاتورية، وإنما تكون الاشتراكية فى الدول الأوربية التى نفضت المسيحية فيها يدها من نظم الحكم بينما أمضت الكنيسة الكاثوليكية تاريخها مناوئة للعلماء والأحرار مهادنة للحكام والملوك على حساب الجماهير الخ... مما جعل للاشتراكية مكاناً فى أوربا

هـــذا من الناحية النظريـــة، أما من الناحية العملية فقد تهـاوت الثـورة الاشـتراكية الـتى قادها أنبيـاء الاشـتراكية وأوثانها المعبودة. لينين، وتروتسكى وسـتالين، ولم تقم لها قائمـة، فمن غـير المعقـول أن نهتـدى بالشـمس الغاربـة، لأنها سـتتركنا فى الظلام الدامس..

أما الديمقراطية، فليست الديمقراطية نظرية، ولكنها ممارسة وأسلوب فى الحكم بالأغلبية، وهى تقوم على تداول السلطة ووجود الأحزاب الخ... ولكنها ليست أيدلوجية وليس لها تنظير.

وكان لمصر تجربتها الديمقراطية بفضل دستور 23، وحققت مصر طوال الفترة من 23 حتى 52 معظم إنجازاتها، كما أنجبت معظم رجالاتها، وإليها يعود ازدهار الآداب والعلوم والفنون والصحافة، ولكن يجب أن لا ننسى أن هذه الديمقراطية سمحت للأجانب بالسيطرة على الاقتصاد فكل شركات المرافق مياه ونور ومواصلات وتليفونات وإذاعة الخ.. وكل الشركات الصناعية والتجارية والزراعة كانت فى أيدى الأجانب وكانت كلها تستخدم اللغات الأوربية، ولا تسمح للمصريين إلا بشغل أقل الوظائف شأنا، ولم يكن جهد طلعت حرب إلا محاولة فردية قد يمثلها أن شركته "شركة بيع المصنوعات" كانت المحل المصرى الكبير الوحيد فى شارع فؤاد، ولم تكن لتماثل شيكوريل أو هانو أو بقية المحال التى لم يكن المصريون يدخلونها "باستثناء الباشوات والبكوات" وكان المربع من الأوبرا حتى كوبرى قصر النيل فى القاهرة كما كانت منطقة محطة الرمل فى الإسكندرية ومحالها الكبرى كالجراند تريانون والبتى تريانون، وفندق سيسل الخ.. مناطق أوربية بمعنى الكلمة تجد فيها السلع والمنتجات، والرجال والنساء من كل أوربا، كما كان للأجانب فى مصر والإسكندرية أحياء راقية، ونوادى مقصورة عليهم، وكادت

إلبنوك العقارية التى يملكها اليهود والأجانب أن ترتهن ثلث إراضى الفلاحين كما قضت تلاعبات البورصة – وكل سماسرتها أجانب – على ثروات ملاك الأرض.

وأدى التغلغل فى المجال الاجتماعى إلى نوع من التحلـل، ففى كل قرية كـــانت توجد خمـــارة يملكها يونـــانى أطلق عليه المصـريون أسم "يـنى" وكـانت المشـروبات الكحولية تبـاع فى محلات البقالـة، والحلـوى وفى كل مدينة منطقة خاصة بالبغـاء، وكانت الراقصات من ملهى فـولى بورجيه فى بـاريس أو ملاهى فينا أو المجر تحضر رأســاً إلى الإســكندرية بينما كـانت فــرق الكوميدى فرانسيز تحيى حفلاتها على الأوبرا الملكية بالقاهرة.

وقد كان هذا يحدث فى الفترة الـتى أعقبت ثـورة 1919، وهى قمة الوطنية المصـــرية وظهـــور دعـــوة التمصـــير ولكن الحزبيـة، وهى جـزء لا يتجـزأ من آليـات الديمقراطية أفسـدت الوطنية المصرية ولوثتها وحولتها إلى مصالح ومكاسب حزبية.

ومما لا يخلو من مغـزى أنه فى هـذه الفـترة بـدأ الزحف الصهيونى على فلسـطين، وكـانت بمصر جالية يهودية كبـيرة لها نوادى اجتماعية ورياضـية مثل نـادى المكـابى، ويشغ لو الشـعب الفلسطينى ملاذاً إلا فى دار الإخوان المسـلمين، وعنـدما بـدأت المعركة أحرز متطوعو الإخوان انتصارات مدوية، وكان يمكن أن يتغير المصير ولا نجد أنفسنا فى مثل 67 لو سمحت الحكومـات الديمقراطية الحزبية للإخوان بالانطلاق.. ولكن المتطوعين كانوا يؤخذون من ميدان القتال إلى معسكر الاعتقال..

ففى هذه المسألة – مسألة إسرائيل – كان الإيمان الدينى أهدى سبيلاً من الحسابات السياسية والحاسة القومية.

من هـذا العـرض نعـرف أن الديمقراطيـة، وإن كـانت لها حسناتها الـتى لا شك فيهـا، إلا أنها ليست هى كل شـئ، كما أنها ليست صـــفواً خالصـــاً، وقد كـــان أكـــبر نقص فى التجربة الديمقراطية المصرية أنها لم تعط المقـوم الإسـلامى حقـه. فلم يتجـاوب الشـعب معهـا، وأقتصر جمهـور الأحـزاب على النخب المثقفة و "العصبيات" فى القرى.

ولأن التجربة الديمقراطية المصـرية كـانت هشة فإنها لم تقاوم العسكر واستسـلمت لمجموعة مغـامرة من الضـباط ولم تقم بأى مقاومة..

فى كل هــذه المرحلة كـان الإســلام هو الحاضر الغــائب فكلما نظرت إلى الجمـاهير وجـدت الإسـلام، وأينما نظـرت إلى السياسة وجـدت سـقط المتـاع الأوربى والمـذاهب والنظريـات

الخادعة، وهذه المفارقة تعود إلى أن إحساس الجماهير ووجدان الشــعب له جــذوره الإيمانية العميقــة، وأن الشــعب رغم كل الغشاوات التى تـراكمت على الإسـلام يحس بـالحنين إليـه، وقد كــانت مــيزة الديمقراطية الكــبرى هى حرية الفكر كما كــانت نقيصتها الكبرى هى إغفال العدل والمعنويـات فى أعلا بلـورة لها وهى الأديــان، وفى الإســلام مـيزة الديمقراطية لأنه يقــوم على حرية الفكر، كما يبرأ من نقيصتها لأنه يقيم العمل.. على العدل.

وقد آن الأوان لينتهى هذا الفصام المشئوم الذى كان أكبر أسباب تهاوى التجربة الديمقراطية فى مصر، وسقوط محاولتى محمد على وجمال عبد الناصر.

ولكــن...

هذا كله إنما يصح بعد تثوير القرآن – نظرية الثورة – وتخليصه من الغشاوات..

وبدون ذلك فقد يوجد حكم يدعى الإسلام وهو إلى الكهنوت أو الخوارج أقرب..

وتضاف خيبة جديدة إلى الخيبات التى لحقت كل تجارب الحكم التى تدعى الإسلامية..

من أجـل هـــــذا ينبغى تثـــــوير القرآن.

الفصل الرابع
تثوير القرآن

قد يكون علينا قبل ان نتحدث عن كيفية تثوير القرآن أن نعلم – على وجه التحديد – ماذا أراد الله والرسول بهذه الكلمة.

لقد جاءت إشارة إلى أحد اشتقاقات الكلمة فى القرآن الكريم عندما قال .. وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا وفسر صاحب معجم ألفاظ القرآن كلمة "أثاروا" "أثار الأرض حرثها وشقها وقلبها للزراعة أو لغيرها كاستخراج المعادن أو استنباط الماء.

وفى الحديث جاء تعبير "ثوروا القرآن" و "أثيروا القرآن" قال مؤلف "مجمع بحار الأنوار" "من أراد العلم فليثور القرآن أى لينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته. وأثيروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين" ويستثير فيها من الفوائد. أى يستخرج. { ص 148 ج1}..

ومن هذه التعريفات نعلم أن المطلوب بتثوير القرآن، وإثارة القرآن، هو ما أراده القرآن عندما تحدث عن تدبر القرآن أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا والفهم السليم لألفاظه وكلماته بحيث يستخرج منها المعنى الذى يمثل روح القرآن..

ولكى نحقق تثوير القرآن لابد من القيام بعمليتين صعبتين..

الأولى: إزالة الغشاوات التى أهالها الأسلاف أكداساً على القرآن الكريم، وقد رأينا نماذج منها فى فصل سابق، وكيف أنها حرفت بعض المعانى، وحجبت معانى أخرى وميعت الصياغة المحكمة التى تحدث الأثر الذى أراده القرآن..

الثانية: تقديم تصور لما يكون عليه الفهم السليم للقرآن الذى يحقق التثوير بالفعل.

ودون كل واحدة من هذين خرط القتاد..

فأولى هاتين العمليتين والتي تبدو سهلة ستتطلب منا استبعاد التفاسير التى اعتمدتها الأجيال كأداة لفهم القرآن بينما كانت فى الحقيقة حجابا بينهم وبين الاقتراب المباشر من القرآن وبالتالى تذوقه، وتدبره والغوص فى أعماقه وتفهم ثوريته...

وهذه التفاسير التى تحمل أسماءً مقدسة، إن لم تكن موثنة، مثل ابن جرير الطبرى، وابن كثير، والقرطبى، والزمخشرى، تعد قدس الأقداس، وهناك عشرات الألوف من الشباب السذج المتحمس الذى يفضل الموت الزوام على المساس بها، ووراءهم الأئمة الأعلام الذين يشغلون أرقى المناصب ولا يترددون فى الإفتاء بتكفير من يريد الخلاص من هذه التفاسير أو يرون فى هذا مؤامرة على الإسلام !

ومما يلفت النظر أن قادة الدعوات الإسلامية الجديدة لم يتصوروا الاستغناء عن هذه التفاسير، حتى وإن انتقدوا الإسرائيليات فيها، ولم تخطر لهم فكرة رفض التفاسير من ناحيتى المبدأ والتطبيق. من ناحية المبدأ لأن أى تفسير لابد وأن يكون إسقاطا بشرياً على معانى القرآن وبالتالى قول بالرأى.. أو افتيات عليه. ومن ناحية التطبيق لأن تفسير القرآن آية آية يعنى تقطيع أوصاله، والحيلولة دون وصول المعنى الكلى ونفاذ هداية القرآن الناتجة عن تلاحم آياته بعضها ببعض وما تثيره فى النفوس والقلوب. بل إن زعيمين من أكبر زعماء الدعوة الإسلامية المعاصرة الشهيد سيد قطب والعلامة المودودى وضعا تفاسير، إن تجردت من الخرافات والخزعبلات فإنها لم تتجرد – ولا يمكن أن تتجرد – من الإسقاط على القرآن وتفسير معانيه من زاوية ما. فضلاً عن اتباعهما التفسير آية فآية، وهو الذى يهدر فعالية الخطاب القرآنى. ومن ثم فإنهما فى هذا المنهج سارا على المنهج السلفى.. وهو ما يعطينا فكرة عن المنزلة المقدسة لتفاسير القرآن الكريم، والمعركة الحامية التى لابد أن تتصدى لها عندما **نقول: " ارفعوا أيديكم عن القرآن" أو " أطلقوا سراح القرآن من قضبان التفسير" أو "دعونا ننقذ القرآن.. حتى ينقذنا القرآن..".**

سيكون علينا أن نقول، وأن نعيد ما نقول، إن الأسلاف رغم نبوغهم وعكوفهم وتجردهم ليسوا معصومين، ولا كاملين، وأنهم كانوا أبناء عصرهم المغلق الذى تسود فيه الخرافة كما يسود الاستبداد وكانت وسائل المعرفة محدودة وصعبة قبل ظهور المطبعة وتيسير وسائل الانتقال..

لابد أن نقول، ونعيد ما نقول، إننا لو فرضنا جدلاً صحة ما انتهى إليه هؤلاء الأسلاف فنحن مطالبون بأن نعمل عقولنا ونقدم إضافتنا ولا نقنع بما قدموا لأن من المؤكد أن هناك جديداً على ما قالوا، وإننا إذا لم نعمل عقولنا ونقدم إضافتنا فإن عُقولنا ستصدأ وملكات تفكيرنا ستتبلد، وعندئذ سنكون ضحية للخرافة، ولن يكتب لنا أن نتقدم أبداً.

لابد أن نقول، وأن نعيد ما نقول.. إن صيحتنا هذه ليست إلا ترديداً لأوامر القرآن الكريم الذى ندد مراراً وتكراراً بالذين إذا دعوا إلى ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا وهو ما يفعله المسلمون اليوم فنحن إذا دعوناهم إلى القرآن قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا من الشيوخ والأئمة... فأى مسلم يحترم القرآن ويطبقه.. يقبل هذا.

لابد أن نقول، وأن نعيد ما نقول، إن اطراح العقل والتفكير والتدبر والعكوف على الاتباع والتقليد هو نزول عن الإنسانية إلى مستوى الحيوان، وليس هذا حكم طبائع الأشياء فحسب ولكنه الحكم الصريح الصادع للقرآن الكريم ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾.

إن هذه الدعوة – مع أنها سلبية – فإنها "ثورية" ليس فحسب لأن الجانب الإيجابى لا يمكن أن يقوم إلا بعد أن تتحقق، ولكن كذلك لأنها أمام صدأ العقول وموت الهمم تعد ثورية، وهل كانت ثورة الحضارة الأوربية فى أول مراحلها إلا ثورة على الكنيسة وتحريراً للعقل من الطاعة والتقليد والاتباع...

ومع أن المعركة ستكون طويلة، وحامية، ومريرة، فإننا فى النهاية سننتصر، لأنه لا يصح إلا الصحيح، ولأن الأوضاع التى ترتبط بمصالح ذاتية تزول بزوال أصحابها. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ وكما تهاوت سلطة الملوك أمام إرادة الشعب فإن سلطة الفقهاء ستتهاوى أمام قوة العقل.

* * *

وعندما يتم هذا سيتبدى لنا القرآن، كما تبدى للأولين، بكل جماله وجلالـــه، بكل روائه وبهائـــه، بكل إلهاماته وهداياتـــه... كالشمس تقدم النور والدفء...

وكما قلنا فى مستهل هذه النبذة، فإن ثورية القرآن ليست شيئا آخر غير حسن فهم القرآن والتوصل إلى أسراره وأعماقه.. لأن هذا هو ما يحقق الثورية، وقد رأينا أن التفاسير التقليدية تحول دون ذلك.

ونتضرع إلى الله أن يوفقنا فى استكشاف ذلك كما وفقنا فى استكشاف سر الإعجاز القرآنى الذى أعيا الأولين التوصل إليه عندما عالجوه من منطلق الإعجاز البيانى.. فى حين أن القرآن ليس كتاب أدب وبيان قدر ما هو كتاب فن وإيقاع، وأن أهم عناصره هو النظم الموسيقى يتلوه التصوير الفنى، وبهذا يضم القرآن فنين من أسمى الفنون وهما التصوير والموسيقى..

بعد هذا تأتى المعالجة السيكولوجية للإنسان التى تضرب على الأوتار الحساسة فيه.. وأن القرآن بفضل هذه العوامل التى تذهب مباشرة إلى أعماق النفس الإنسانية، وتهزها يوجه الإنسان لإعمال العقل.. وتطبيق القيم..

نقول أننا هنا أيضاً – فى موضوعات القرآن – نرجو أن نوفق.

ومفتاح ذلك أن نحدد الموضوعات الرئيسية التى يدور عليها الخطاب القرآنى وهى كما نرى..

أولا: الله تـعالى.

ثانيا: اليوم الآخر.

ثالثا: الرسول (ويتبعه بقية الرسل).

رابعا: الإنسان، والمجتمع الإنسانى.

خامسا: الكـون.

سادسا: العـقل.

سابعا: القيــم.

هذه هى الموضوعات الرئيسية التى يدور حولها الخطاب القرآنى والفهم السليم للقرآن، وهو البديل الأمثل عن التفسير، هو جمع كل ما جاء فى القرآن عن موضوع منها بحيث تتضح كل أبعاد الصورة التى يريدها القرآن لهذا الموضوع.

ولا يقتصر الإعجاز القرآنى على أنه قدم "توليفة" تضم كل القضايا الرئيسية، ولكن أنه عالج كل قضية من هذه القضايا معالجة مثلى جاءت فى إطار صياغة مثلى أيضاً، وهذا ما يمثل ثورية القرآن.

فلننظر مثلاً كيف عالج القرآن الكريم موضوع "الله تعالى" نجد أن القرآن قد استبعد التجسيم الذى أدى إلى الوثنية، والتجريد الذى يفقد الله تعالى الحياة ويجعله "فرضاً فلسفياً" وكيف أنه دلل على وجود الله تعالى بالخلق. فكيف ظهر هذا الكون بسمائه وشموسه وأقماره وبحاره وأنهاره، وكيف يسير بضبط وانتظام وإيقاع لا يخل، وكيف خُلق هذا الإنسان فى أبدع تقويم. إن القرآن الكريم يدلل بهذا كله على وجود الله ويقضى على كل الشكوك فى جملة واحدة ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ إذن لابد من خالق ولابد لهذا الخالق الذى وَهب الحياة أن يكون هو نفسه حياً، ورمزاً للحياة ولابد أن يكون حكيماً غاية الحكمة قادراً كل القدرة...

أما عن ذاته فقد قال بصريح العبارة إن العقل الإنسانى لا يمكن أن يصل إليها أو حتى يقرب منها وهذا أمر لا يرفضه العقل لأن العقل البشرى لا يدعى أنه علم كل شئ فى الكون بأسره، وتوصل إلى أسرار كل شئ، وما يصل إليه بالنسبة لله هو صفاته، وقد اتفقت كل تصورات الفلاسفة الأوربيين الذين قدموا تصوراً لله تعالى مع ما قدمه القرآن[1].

إن إعجاز القرآن فى هذه القضية لا يقتصر على أنه حل مشكلة الألوهية التى حيرت البشرية وضلت فيها الأفهام، ولكن أن القرآن قدم "المثل الأعلى الأعظم" عندما قرن بالله تعالى الأسماء الحسنى التى تجعله مصدر القيم وكان هذا المثل الأعلى الأعظم هو أقوى عامل للإلتزام بالخير والسلام وإتباع القيم والأخذ بمكارم الأخلاق كما قدم الإشباع الروحى والسكينة النفسية.

ومن المؤسف أن موضوع الألوهية، وما ينبغى لله تعالى قد عولج من المسلمين معالجة شكلية لم تلتزم بما جاء فى القرآن ولكنها انحرفت إلى متاهات وأقحم فيها عناصر غريبة بتأثير المنطق الأرسطى والفلسفة اليونانية الوثنية وأطلق على هذه المعالجة "علم الكلام !!" ولم يتغير هذا الأسلوب منذ أن وضعه المعتزلة، ولم يخلص منه الغزالى أو حتى الشيخ محمد عبده فى رسالته "رسالة التوحيد"..

وأدت هذه الطريقة المجافية لطريقة القرآن لأن يفقد "الإيمان بالله" عناصر القوة والحيوية والفعالية، وشلت أعظم حافز ودافع وأقوى مؤثر وملهم.

وبعد الإيمان بالله يأتى الإيمان باليوم الآخر، والعناية بهذا الموضوع وتأكيد حقيقته من أبرز ما يتميز به الإيمان الإسلامى، وقد كان هو – وليس وجود الله تعالى فيصل التفرقة بين الإسلام والأديان الأخرى – أو حتى بين الأديان وبين جماهير عديدة كان من الصعب عليها أن تؤمن بأن الإنسان بعد أن يموت ويصبح رفاتاً وترابا يبعث من جديد ويحاسب بالعدل على ما قدم حساباً لا يفلت صغيرة ولا كبيرة نقول كان من الصعب على الناس أن يصدقوا هذا "وقد جاء رجل إلى النبى وفى يده عظم متآكل فقال له هل يحيى الله هذا العظم.. فقال الرسول نعم فولى الرجل مدبراً

وكان رد الإسلام أن الله خلق الإنسان من طين فلا يعجزه أن يبعثه من تراب.

---

1 **(1) أنظر كتابنا " الإسلام والعقلانية "..**

ولم يحظ "اليوم الآخر" فى أى دين بالمنزلة التى حظى بها في الإسلام، ربما باستثناء الديانة المصرية القديمة كما ذكرنا ذلك آنفا..

ويعود الأثر العظيم لليوم الآخر إلى أنه يحكم تصرفات الإنسان فى الحياة الدنيا، ويقيم العدل أساساً وفيصلاً، ويستدرك ما أخطأته عدالة الدنيا من إثابة للمحسنين أو عقاب للمذنبين.. في عدالة اليوم الآخر، وهذه هى الفكرة الأساسية فى اليوم الآخر **"كمال العدالة"** وهو تصور يتقبله بل يرحب به العدول قدر ما يرفضه ويضيق به الظلمة..

ومن الطبيعى أن يختلف فرد يؤمن باليوم الآخر عن فرد لا يرى له وجوداً ويقول ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ فإن فكرة العدالة والخلود تظلل حياة الأول فى حين أن الثانى لا يعرف وجوداً سوى حياته على ظهر الأرض، وأن ليس بعدها إلا الفناء فهو يحرص على حياته ويعمل ليطيلها، ويبعد عن كل ما يمسها، كما يعمل لذلك بما يجعل هذه الحياة سعيدة ومن ثم يبعد عن أى تضحية، أو عناء أو خوض المعارك الخ... ولكنه مهما يحصل عليه من استمتاع فإن فكرة "الفناء" تنغص عليه حياته.. وتثير فيها الاكتئاب.. فما قيمه حياة تنتهى إلى العدم.

وتحدث القرآن عن نهاية هذه الحياة الدنيا، واندثار هذا الكوكب الأرض – الذى سيرسم بداية الحياة الآخرة حديثاً دراماتيكيا – ديناميكيا – مروعاً ولعل الأجيال الحديثة تتفهمه أكثر من الأجيال القديمة فنحن نعلم إن الأرض ليست إلا كوكبا صغيراً يسبح مع ملايين الكواكب فى الكون العميق، وإن لو أقترب بالأرض أكثر مما هو مقرر له أحد هذه الكواكب لتفجرت الكرة الأرضية وأخرجت أثقالها وفجرت بحارها ومحيطاتها ونسفت جبالها نسفاً فأصبحت كالعهن المبثوث بل قد تحدث هذه الكارثة المروعة لو اصطدمت شظية من ملايين الشظايا السابحة فى الكون بالأرض. على أن الإنسان لديه ما يمكن أن يدمر الأرض تدميراً كما أن سياسات الأنانية لوثت الأرض والسماء مما يمكن أن يجعل المحيطات تكتسح الأراضى، ولدى الدول الكبرى من أسلحة الدمار الشامل، ومن الغازات والميكروبات ما يجعل البشرية كلها قطيعاً من المرضى والمجانيين.

إن كل هذه المخاطر محتمله، وما دامت محتملة فيغلب أن يقع أحدها.. وهو يكفى لدمار الأرض ومحو الحياة الإنسانية فيها ويحدث ما وصفه القرآن وصفا دقيقاً مروعا من أكثر من ألف وربعمائة عام، ولا يخفف من رعب الإنسان إزاء ذلك إلا

معرفته أن وراء هذه الكارثة الرهيبة حياة جديدة أكثر عدلاً من الحياة الإنسانية الأولى..

وهذه المعانى كلها هى ما أستبطنها الصحابة الأول حتى وإن لم يحدث هذا بالأسلوب الذى عرضناه، وهى أيضا ما يستشعرها كل واحد يقرأ ما جاء فى القرآن الكريم عن اليوم الآخر..

والإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر هما ما يمثلان "الغيبية" فى موضوعات القرآن الكريم السبعة، وقد هاجم الفكر الأوربى فكرة "الغيبية" وقرنها بالخرافة، وأعاد إليها سر تخلف المسلمين. وليس الأمر كذلك. فإن كمال العدالة لا يتأتى إلا بحكم الحياة الآخرة، وإلا فلن يثاب الملايين من الجنود المجهولة التى تعمل فى صمت وظلام دون أن يحظوا بشكر أو ثواب، وسيفلت من العقاب الألوف الذين يقترفون السيئات ويتمكنون بفضل الدهاء والذكاء من إخفاء جرائمهم أو إلباسها ثوب الشرعية.. بل قد يصل الأمر إلى ما كان مطبقا فى اسبرطة فالسارق والقاتل الذى يخدع السلطات فلا يقبض عليه يعد بطلا.. أما الذى يقع فى أيدى الشرطة فهو مجرم ! وهناك جوانب أخرى للغيبية لا يحيط بها الأوربيون، فوجود النار "الجحيم فى الآخرة" أبعد العقاب بالنار من التشريع الجنائى الإسلامى، بينما كان الحريق فى أوربا هو عقوبة الزندقة والهرطقة وأى خروج على الشرع المقرر، وعندما يصرح القرآن الكريم فى آيات عديدة بأن الله تعالى يفصل فى الخلاف ما بين الملل والنحل يوم القيامة فإن المعنى العملى لذلك إقرار وجود الاختلافات وبقائه، وأن الله تعالى – وليس السلطات – هو الذى يفصل فيه.

الموضوع الثالث الذى يُعنى به القرآن هو الرسول ويدخل فيه موضوع الرسالة وبقية الرسل، لأن رسولنا ليس إلا النبى الأخير فى سلسلة من الأنبياء الأخوة أرسلهم الله لإعطاء البشر فكرة صحيحة عن الألوهية. إن الناس قد تهتدى بفطرتها إلى وجود إله، ولكنها تعجز عن تصور ذات هذا الإله ومن ثم فقد تتمثله فى الشمس أو القوى الطبيعية أو الأباء الخ... وقد تنسب إليه ما تألفه من طباع، ومهمة الرسل هى تقديم التصور السليم بقدر ما يمكن للعقل البشرى استيعابه عن الله تعالى..

ورسالة الأنبياء تستتبع بداهة الإيمان بوحى يحمل رسالة الله تعالى إلى الرسول..

أما كيف يكون هذا الوحى وما هى طبيعته، وما هى طريقة كلامه الخ... فهذه جوانب قد يصعب على العقل استيعابها لأنها جزء من عالم الغيب الذى استأثر الله بعلمه، ما يعنينا هو أن الله تعالى يبلغ رسالته بما يشاء من الطرق.. وأن الرسول لا ينطق عن هوى ولا يتحدث من تلقاء نفسه وإنما هو يعبر عن رسالة من الله لا يملك أن يغير أو يبدل أو يزيد أو ينقص منها..

بالإضافة إلى هذه المهمة التى من أجلها أرسل الله رسله، فإن الرسل يقدمون المثل لما يجب أن يكون عليه الناس. وما يتصفون به من كرم الخلق ومن الشجاعة والكفاح والتضحية دون أن يطلب أجراً، أو يريد جاهاً أو منصباً فهو من هذه الناحية يختلف عن صورة البطل التقليدية الذى لا يعمل إلا للزعامة ويستحل ما تضفيه هذه الزعامة عليه من غنائم، وهم يقدمون "القدوة" التى يقتدى بها الناس، وهو أسلوب سائغ من أفضل أساليب التربية.

ولم يتحدث القرآن عن عدد الأنبياء والرسل ولكنه أشار إلى أنه ما من قرية إلا خلا فيها نذير، وقد تحدث بإفاضة عن نوح وإبراهيم وأبنائه اسحق ويعقوب وإسماعيل وبنى إسرائيل وغيرهم وفرض على المسلمين الإيمان بهم جميعاً وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، وهذه درجه من المساواة قلما يصل إليها دين إذ المشاهد أن لا يذكر الدين إلا نبيه، وقد يشير إشارة عابرة إلى أنبياء آخرين، ولكنه لا يوجب على أتباعه الإيمان بهم، ومن باب أولى – المساواة ما بينهم وبينه وهذا أحد الأدلة الناطقة بموضوعية الإسلام.

وأعتبر القرآن أن الأنبياء هم قاده البشرية وهداتها وعادة ما يتصدى لهم الجبابرة والطواغيت من الملوك والحكام الذين يهيمن عليهم حب السلطة والسيطرة أو المترفين الذين أفسدهم الترف.

الموضوع الرابع الذى يعالجه القرآن هو الإنسان. ومن الواضح أن القرآن إنما نزل لهداية الإنسان فلو كان الترتيب تبعاً للهدف لنال الإنسان الأولوية، وقد تحدث القرآن عن الإنسان الذى خلقه الله من طين وتراب أو صلصال ونفخ فيه من روحه فخلقه فى أبدع تكوين وزوده بالسمع والبصر والأيدى والأرجل والقلب والعقل، وغرس فيه الغرائز والملكات والطبائع ثم "علمه الأسماء كلها" وهى نقطة سنعالجها فى فقرة خاصة لأهمية مدلولها وأمر الملائكة بالسجود له، وجعله فى الأرض خليفة

وتحدث القرآن عن الإنسان كما خلقه الله ونفسه التى ألهمها فجورها وتقواها، ولم يستبعد منه الذنب والخطأ، بل إعتبر ذلك جزءًا من طبيعته، ووضع له الطريقة التى لا تجعل الشهوات تستبد به كالإستغفار، والتوبة، وأداء الحسنات التى تجب السيئات.. وأداء المكفرات الخ...

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً .الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ .

وحل القرآن مشكلة الشر التى حيرت الأديان وجعلت بعض الأديان تؤمن بإلهين واحد للخير والنور وآخر للشر والظلام.. عندما أبرز دور الشيطان فى غواية الإنسان لتكون الحياة نوعاً من الاختيار والمبارزة ما بين الخير والشر، هداية الأنبياء وغواية الشياطين، وليظهر دور الإرادة الإنسانية وحرية الاختيار.

وتحدث القرآن عن الإنسان كذكر وأنثى وسوى بينهما وإن أبرز أن لكل دوره، وأقام الحياة الزوجية على المودة والسكينة والرحمة، وحاط الرجال والنساء بضمانات لحماية الكرامة الإنسانية وكفالة الحقوق فقرر حرية الفكر والاعتقاد، وحمى الملكية والخصوصية، واستبعد إيقاع أى عقوبة إلا بالحق، وكرد أو قصاص. وجعل العدل فيصلاً فى العلاقات وشدد على الوفاء بالعهود والقيام بالالتزامات وندد بكل صور التمييز القائمة على لون أو عنصر أو جاه، وحرم كل صور التجسس على الأفراد أو الحكم بالظن.

وبعد أن عالج القرآن الفرد الإنسانى عالج المجتمع ووضع أصولاً لما يجب أن يقوم عليه من موضوعية تصل إلى حد شهادة الفرد على نفسه، وعلى الاقربين ثم وضع خطوطاً عريضة تكفل السلامة للمجتمع مثل تحريم الربا وكل صور الاستغلال وإيجاب الزكاة والحث على الإنفاق، ومثل الأمر بالشورى والحكم بالعدل وأن تتعارف وتتألف الشعوب على مستوى العالم..

وتحدث الإسلام عن الحرب والسلام واعتبر السلام القاعدة وأن الحرب لا تمارس إلا عند الضرورة ولكى لا تكون هناك فتنة، وحرم كل صور الوحشية فى الحروب كما أرسى مبدأ تحرير الأسرى "فاما مناً بعد وإما فداء ".

والموضوع الخامس من موضوعات الخطاب القرآنى. هو الكون الذى تحدث عنه القرآن بصورة مستفيضة يندر أن نجد مثلها فى أى دين آخر، وهناك مجموعة من أسماء السور القرآنية تحمل أسماء " البقرة – النمل – النحل – العنكبوت " بينما تحمل مجموعة أخرى أسماء " الشمس – القمر – النجم – الحديد – البروج – الرعد – التكوير – الانفطار – الطارق – الدخان " وتحدث القرآن وأفاض فى ذكر السماوات والأرض والشمس والقمر ودعا المؤمنين ليسيروا فى الأرض ليشاهدوا آثار الحضارات ووجه الأنظار إلى مواطن الجمال فى الشجر والنبات والأرض الميتة، وقد أحياها الماء والزهور اليانعة والأشجار المثمرة.

وحقيقة الحال أن أى قارئ ينعم النظر فى القرآن ويتشرب آياته لابد وأن يتكون فيه وعى كونى وتنشأ بينه وبين الطبيعة والكون علاقة وثيقة يسودها الإنساق والانتظام والإحساس بالجمال والغائية، وأن هذا الكون كله من جبال ونجوم وكواكب كلها تسبح لله، وتدور فى فلكها المرسوم وكلها من النملة والبعوض حتى الشموس والمجرات أمة واحدة.

هذه الألفة للكون والصلة الحميمة ما بين الكون المسخر للإنسان، والإنسان المؤتمن على الكون تعمق الانتماء وتملأ المشاعر وتبعد "الاغتراب" أو "العبثية" أو غيرها من المشاعر التى تتملك الإنسان الأوربى فى العصر الحديث.

والموضوع السادس من موضوعات القرآن هو العلم والعقل. وهذا أيضاً أحد عناصر التفرد فى الإسلام الذى جعل القرآن معجزة له، وفى القرآن الذى لابد وأن يتمحور – ما دام كتابا – حول الفهم والفكر. وهذان – أى الإسلام والقرآن – مرتبطان بما أراده الله تعالى للإنسان من تكريم لأنه **"علم آدم الأسماء كلها"** وهذه الواقعة نرى الإشارة إليها فى التوراة فى صورة ساذجة بعيدة عما أراده القرآن فقد قصد بها فى التوراة أسماء الحيوانات أو النباتات ولكن رُمز بها فى القرآن إلى مفاتيح المعرفة وعندما أمر الملائكة بالسجود لآدم لهذا السبب، فأنه كرم العلم والمعرفة إلى أبعد مدى وفضلها على العبادة.

وإعتبر القرآن أن التفكير فى مظاهر القدرة الإلهية وخلق هذا الكون العجيب سبيلاً ووسيلة للإيمان بالله أى أنه بنى الإيمان على المعرفة، حتى وإن عجز العقل عن أن يلم بذات الله، ولهذا فإن الدعوة إلى الفكر وإلى النظر، وإلى التدبير تتخلل آيات القرآن وكثيراً ما يرد الحديث بصفة "أفلا يعقلون" أو "أفلا يتدبرون" وهو استفهام فيه قدر من التبكيت ينم على أن المفروض فى الإنسان أن يستخدم عقله وفكره.. وقد يتحدث

القرآن عن "ذوى الألباب" وقد كره القرآن للناس أن يتبعوا آباءهم لأنهم آباءهم دون تفكر فيما تركه هؤلاء الآباء بل رفض أن يخر المؤمنون إذا ذكروا بآيات ربهم صماً وعميانا أو الذين لا يستخدمون عقولهم وقلوبهم وأبصارهم التي خلقها الله لهم، وإعتبر أن الغفلة تهبط بالإنسان إلى ما هو أقل من الأنعام فقال ﴿... أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

وقد تحدث القرآن عن العلم بما يوحى أنه الوسيلة للهداية والمعرفة وللتفرقة ما بين الخطأ والصواب، الحقيقة والخرافة، ولقب نفسه "العليم" فى قرابة 140 آية.

أخيراً جداً نصل إلى الموضوع الأخير من المواضيع السبعة للخطاب القرآنى وهو القيم. وهو فى الحقيقة أشبه بالثمرة لكل ما سبق من موضوعات. فإنما أراد القرآن أن يؤثر فى النفس الإنسانية بإيقاعه الموسيقى وتصويره الفنى وترغيبه وترهيبه ومعالجته النفسية كلها ثم توجيهه لإعمال العقل ليصل فى النهاية إلى تطبيق الإنسان للقيم التى جاء بها القرآن والتى تكفل له الهداية والسلام وتبعده عن الشقاء والشر وقد تحدث القرآن عن هذه القيم طويلاً وحث عليها، كما ندد بنقائضها ومن أبرز هذه القيم التقوى بالنسبة للفرد، والعدل فى المجتمع واستهداف الخير وتغليب الرحمة والسماحة وأن لا يصبح الإنسان عبداً لشهواته وبالذات شهوات المال، والسلطة والجنس التى تستبد بالناس.

وقد يقول قائل. إن الفلسفة تدعو إلى هذه القيم وتأمر بها، ولكن القيم عندما تأتى من الله، وفى كتابه **فإنها تكتسب أهمية أعظم وتصبح مقدسة كما تأخذ طبيعة "موضوعية"** لأن الله تعالى يخاطب البشرية كلها ولا يفرق بين جنس وجنس، وحتى الذين آمنوا، فإنما تكون أفضليتهم لإتباعهم القيم، وليس لأى معنى آخر، وقد تبدو تلك ظاهرة طبيعية، ولكن الحقيقة أن القيم التى يضعها بعض الفلاسفة كثيراً ما ترتبط بجنس معين، ويمكن القول إن الشعوب الأوربية لا تؤمن بتطبيق قيم العدالة والمساواة على بقية شعوب العالم وأن أبرز، وأسوأ ما تتعرض له القيم التى يضعها المفكرون هى النسبية، وقلما نجد الموضوعية، والإطلاق إلا فى القيم التى تقدمها الأديان لأنها تقدمها للبشرية كافه، ولأنها فوق العواطف والمشاعر الذاتية التى تتحكم فى الجماعات والشعوب.

خاتمة

عندما قلنا "تثوير القرآن" فهم البعض أن الثورة الناتجة عن ذلك ستشبه الثورات التي تضمنتها كتب التاريخ كالثورة الفرنسية والثورة البلشفية، أو حتى الانقلابات السياسية والعسكرية، وما تحفل به هذه الحركات من لوثات أبرزها تدمير الشرعية الدستورية وإحلال الشرعية الثورية المزعومة محلها.

وهذا خطأ محض، فتلك الثورات تورطت فى مآثمها لأنها لم تخلص من القصور البشرى فاستسلمت لما ظنته عادلاً. إن زنج البصرة أرادوا استعباد سادتهم كما أن أتباع سبارتاكوس كانوا يريدون استرقاق الرومان وفى العصر الحديث وضع لينين مبدأ "اغتصاب المغتصبين" وهو ما ينم عن الطابع الذاتى الذى ما كان يمكن أن تخلص منه هذه الثورات، والذى يجعل الثورة بين القائمين بها والذين تثور عليهم مجرد تبادل الأدوار

إن تثوير القرآن شئ آخر. أنه التثوير الذى يلتزم التزاماً صارماً بضوابط الشرعية التى تصل إلى قمتها بالنسبة للإنسان وكرامة الإنسان وتمثلها الآيات ﴿..مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ هذا المبدأ الذى يكاد يكون النقيضَ للمبدأ الذى تقوم عليه الثورات والذى يجعل الهدف نجاح الثورة ولو قتلت الناس جميعاً..

وقد يكون أمل البعض قد خاب عندما سمع لأول مرة "تثوير القرآن" ثم اكتشف أن العملية ليست إلا التفهم العميق السليم للقرآن ككل والتوصل إلى روحه وإلى مبادئه الكلية.. فهم كانوا يريدون الدماء والمحاكم الثورية والسجون والمعتقلات.. لأن ثقافاتهم ربطت ما بين الثورة وهذه الممارسات فإذا لم تقترن بها فليست ثورة.

لهؤلاء نقول هذا فهم أوربى خالص وأما فهمنا فهو قرآنى يستهدف تحقيق الإيمان بالإقناع والحوار فإذا تحقق الإيمان، فإن هذه الحالة تحكم ما سبقها وما بعدها، بمعنى أنها تَجُبُّ ما سبقها لأنه حدث قبل الإيمان فلا يحاسب بمعايير الإيمان، ولا يجوز للماضى أن يحكم الحاضر والمستقبل ويمكن لفرد ما أن يكفر عن ماضيه بمختلف الوسائل، ولكن لا يجوز أن يحال بينه وبين الإيمان لأنه من طبقه الرأسماليين أو لواقعة نسب أو لشغل وظيفة، وفى الوقت نفسه فإن الإيمان سيحكم مستقبله بحيث يسير فى مسار مختلف تماماً عن ماضيه. وما كان هذا ليمكن عملياً لولا إن الإيمان يخلق الإنسان خلقاً جديداً. فالثورة

الإسلامية تتحرر من لوثات الثورات الأوربية، وفى الوقت نفسه فإنها تصل إلى أعماق لا تصلها هذه الثورات وأى ثورة تفتح المعتقلات والسجون أو تلجأ إلى التعذيب أو تقمع الحريات وضمانات الحقوق فإنها لا تمت إلى الإسلام، وإنما إلى الفهم الأوربى للثورات فتضطر للعنف فالثورة الأوربية تعُنى بإصلاح الأوضاع، والثورة الإسلامية تعنى بإصلاح الفرد، فتلجأ إلى الإيمان.

ومن خصائص الثورية الإسلامية أن لا يأتى التشريع – اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسياً، إلا بعد الإيمان لأنه مع التسليم بأهمية هذا التشريع، فإنه ما لم يقم على إيمان فإنه لابد وأن يلوذ بوسائل القسر وفى النهاية تتحول الثورة إلى ديكتاتورية...

فإذا أريد تطبيق الشريعة مثلا، فإن هذا لا يجوز أن يحدث إلا بعد أن يؤمن الشعب بذلك وعندئذ تكون أحكام الشريعة إرادة شعبية فلا يحدث تعارض ما بين سيادة الشعب.. وسيادة الشريعة، وهذا هو ما حدث فى ثورة الإسلام الأولى. فإن الرسول لم يصل الحكم، ولم يبدأ التشريع إلا بعد أن آمن به الأنصار وطلبوا إليه ذلك وانتظروه على أبواب المدينة ثلاث ليال.. وعندما جاء سلموا إليه الأمر فحكمهم بمحض إرادتهم وطبقاً لما آمنوا به.

وعندما نقول أن ثورية الإسلام هى ثورة الإيمان، فكأننا نقول هى ثورة الحرية وثورة العقل لأنه لا إيمان إلا باختيار طوعى، ولا إيمان إلا بعد تفكير فثورة الإسلام هى ثورة الحرية.. وثورة العقل.. ولا ينفى هذا أن تكون قد انحرفت بعد الفترة النبوية والخلافة الراشدة. وقد شرحنا عوامل التحول لأن هذه العوامل لا تقوم على أصل من القرآن أو من الصحيح من السنة، وإنما هى رد فعل لتطورات حكمت المجتمع الإسلامى وقتـئذ على ما شرحنا عندما تعرضنا لعوامل التحول.

إن لب الثورية القرآنية هو فهم القرآن وقد أوضحنا أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا بعد تحرير القرآن من إسار التفاسير، والنظر إليه فى ضوء الموضوعات الرئيسية فى الخطاب القرآنى، وإذا تم هذا فإنه هو التثوير الذى سيغير أوضاع المجتمع تغييراً جذرياً شاملاً بدون دماء وبدون محاكم ثورية وبدون معتقلات وإنما بفضل عمل يقوم على إيمان الجماهير بما جاء فى القرآن من القيم، ولما كانت الحرية والعدالة من أبرز هذه القيم، فإن هذا المجتمع سيسمح بتعددية لا يفصل بينها العنف أو الأثرة لأن من القيم الحاكمة فى هذا المجتمع التعاون فى مجال

الاتفاق، وترك الفصل فى الخلاف إلى الله تعالى فى اليوم الآخر.

فثورية القرآن وإن توفر لها المقومات الثلاث للثورة كما ذكرنا فى الفصل الأول { النظرية – إرادة التغيير – مشاركة الجماهير } فإن الطابع العام لهذه الثورية هو السلام الذى يتفجر حرية وحيوية ومبادءة دون لواذ حرب أو عدوان، وبهذا تتميز ثورية القرآن عن المجتمع الخاص وعن المجتمع العدوانى..